سلامة موسى

ما هي النهضة

تراث التنوير

مكتبة الأسرة 2002

سلامة موسى

ما هى النهضة؟

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٢

تراث التنوير

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى :

صبرى عبدالواحد

كمبيوتر جرافيك :

مهندس : سامى بخيت

المقــدمة

نحن فى نهضة فيجب ان نفهم معانى النهضة ٠

ويجب أيضـا ألا نقف منها موقف المتفرجين ، اذ علينـا ان نعمل فيها ونعاونها ونعيش اتجاهاتها نحو المستقبل ٠

النهضة ثراء وقوة وثقافة وصحة وشباب ٠ ولكن قد يكون الثراء مؤلفا من نقود زائفة كما قد تكون القوة والثقافة والصحة والشباب خداعا وليس حقيقة ٠

★★★

كان « ابساماتيك » فرعونا على مصر ٠ تولى الحكم فيما بين ٦٦٦ و ٧١٢ قبـل الميـلاد ، وهو مؤسس الاسرة السـادسة والعشرين ، وكلمة « مؤسس » تعنى انه كافح أعـداء ونصب اهدافا ودرس وحقق ٠

ولكنه كان رجلا خالص النية فى خدمة وطنه اكثر مما كان ذكيا بصيرا بمستقبل بلاده ٠ وكان أعداء مصر يحيطون بها ٠ فمن الغرب غارات ٠ ومن الجنوب غارات ٠ وفى الشرق هزائم ٠ والمستقبل مظلم والأمة مفككة وولاء الشـعب موزع بين الكهنـة والعرش ٠ والدسائس لا تنقطع ٠

وفكر الرجل فى نية خالصة وعزم حديد فيما أصاب مصر ،

وذكر تلك القرون الأولى حين كان « خوفو » يقول : شيدوا لى هـرما • فما هى الا سـنوات حتى يراه ينطح السـماء • وكان ابساماتيك يرى الأهرام كما نراها نحن الآن • وكان يقرأ التاريخ فيرثى لبلاده وضعفها •

وفكر • ثم فكر • وانتهى أخيرا الى ان مصر لن يعـود اليها مجدها الغابر الا اذا رجعت الى تقاليد هؤلاء الأسلاف ، فأحيت الشعائر القديمة ودرست نصوص الديانة القديمة ، ونهضت بالفنون على أساليبها القديمة • بل زاد على ذلك بأن عاد الى سقارة حيث الاهرام ، أى حيث قبور الفراعنة من الدولة القديمة، فقال بوجوب العودة الى دفن الفراعنة فيها •

وحسب ابساماتيك أن هذه نهضة ، مع أنه كان يفصل بينه وبين خوفو من السنين مثلما يفصل بيننا نحن وبين ابساماتيك نفســه •

« عودوا الى القدماء » •

كان هذا شعاره • وكان شعار الافلاس لأن مصر كانت فى عصره أسمى مما كانت أيام خوفو كما يمكن أن نعرف ذلك مما قام به خلفه « نيخاو » الذى هيأ سفنا تدور حول أفريقيا • أين بناء الأهرام من مثل هذا العمل العظيم ؟

ان ظروفا جديدة نشأت فى الدنيا المحيطة بمصر • وكانت تحتاج الى استنباط جديد •

ولم تكن تحتاج الى الرجوع الى الوراء نحو ٢٥٠٠ سـنة تقريبا •

ولم تمض على مصر بعد ذلك مائة سنة حتى كان الأعداء من الأشوريين والفرس يكتسحونها ويغتالونها • ولم ينفعها شعار : عودوا الى القدماء •

★★★

فيما بين سنة ٥٠٠ وسنة ١٠٠٠ استولى الظلام على أوربا •

وكان ظلاما حالكا • لأن الثقافة كانت وقفا على الرهبان ، يبحثون جغرافية العالم الآخر وهم لا يدرون جغرافية هذا العالم • ويشرحون للناس كيف يحب ان يموتوا بدلا من ان يشرحوا لهم كيف يجب ان يعيسوا • ويشتبكون فى مشكلات « ذهنية » أولى بها ان يبحثها الأطفال وان يضحكوا منها ، مثل قيمة الرقم ٧ فى الدنيا والآخرة • ومثل عدد الملائكة الذين يمكنهم ان يقفوا على رأس ابرة • ومثل مكان الروح من الجسم • الخ •••

كانوا يبحثون العقائد لا الحقائق •

ولكن رويدا رويدا تنبه الأوربيون الى انهم جهلاء ، ونظروا حولهم فوجدوا ان الأمم الاسلامية فى أسبانيا وفى الشرق تحيا حياة القوة والذكاء • فقصدوا اليها يدرسون وينقلون مؤلفات ابن رشد وابن سينا وابن طفيل وابن حزم ، وغيرهم •

ثم لم يقنعوا بما ألفه المسلمون ، اذ هم نقلوا أيضا للغة اللاتينية مؤلفات الاغريق القدماء التى كان المسلمون قد ترجموها الى اللغة العربية • فعرفوا أفلاطون وأرسطوطاليس عن طريق اللغة العربية •

واستطاعوا ان يعرفوهم أكثر عنـــدما هاجر الاغريق من القسطنطينية الى أوربا الغربية • فأصلحوا أخطاء الترجمة التى كان المترجمون المسلمون قد وقعوا فيها عندما نقلوا ارسطوطاليس وأفلاطون وغيرهما الى اللغة العربية •

ومضى الناهضون يجترئون ويفكرون •

ولكن رويدا رويدا اتضح لهم انهم قد خرجوا وتخلصوا من قدماء الكنيسة الى قدماء الاغريق •

★★★

قدماء بدلا من قدماء •

وان العرب لا يختلفون عن القدماء لأنهم اعتمدوا عليهم • أى على القدماء • حتى ان ابن رشد كان يعتقد انه لم يخلق فى العالم انسان مثل أرسطوطاليس •

وعندئذ تساءل هؤلاء الناهضون :

« هل المعارف الحقة الصادقة تؤخذ من الكتب القديمـــة أو تؤخذ من الطبيعة ؟ »

فقد كانوا يدرسون الطب مثلا فى كتب جالينوس وابن سينا ولكنهم لم يكونوا يعرفون تشريح الجسم البشرى •

وهنا نجد رجلا المانى الأصل سويسرى الوطن ، ولـــد فى ١٤٩٣ ، يدرس القدماء ثم يلعنهم بدلا من ان يبارك عليهم • هو « باراكيلسوس » •

والاسم عجيب • فانه اختاره لنفسه وترك اسمه الميلادى • ومعنى هذا الاسم « فوق كيلسوس » •

وكيلسوس هذا الذى أعلن أنه فوقه هو عالم رومانى كانت له موسوعة تدرس فى الجامعـــات أيـام القرون الوسـطى بـل بعدهـا ٠

اى ان باراكيلسوس يقول : أنا فوق القدماء ٠ انا فوق عالمكم المحترم كيلسوس ٠

ولم يكتف بهذا ٠

فانه كان يلقى محاضراته فى مدينة بازيل باللغة الألمانية ٠ وهنا قف قليلا :

ذلك ان التعليم كان الى وقته وبعد وقته باللغة اللاتينية فى جميع جامعات أوربا ٠ ولكنه هو أبى ان يلقى محاضراته بهـذه اللغة القديمة ٠

كان شعبيا ٠ كان عاميا ٠ أى كان مع الشعب ٠

واجترأ على ان يعلم بلغة العامة ٠ اللغة الألمانية ٠ وكان أول من أقدم على ذلك فى أوربا جميعها ٠

وكانت محاضراته خاصة بالطب والعلاج ٠

وذات صباح بعد اختبار وقلق ، وتساؤل وأرق ، رأى ان يقف الموقف الحاسم فى تاريخ أوربا ٠ بل فى تاريخ الانسان ٠

فلم يذهب الى الكلية لالقاء محاضراته كما كانت عادته ٠

ولكنه جمع مؤلفات ابن سينا ومؤلفات جالينوس وحملهـا على ظهره الى ان وصل وهو يلهث الى ميدان المدينة ٠ وهنـــاك وضعها أمامه على الأرض وشرع يخطب :

ان القدماء ليسوا أفضل وهم لا يعرفون مقدار ما نعرف ٠

ان دراسة القدماء نافعة ولكن دراسة الطبيعة أنفع منها ٠

ان الكتب القديمة تحفل بالأخطاء ولم يكن مؤلفوها معصومين ٠

ان الطب تجارب وليس تقاليد ٠ اننا نتعلمه من الطبيعة وليس من الكتب ٠

واحتشد حوله ، فى سوق المدينة ، أى الميدان العام ، فئات من الطلبة والأساتذة والعامة والخاصة ٠ فلما انتهى من خطبته أشعل النار فى كتب جالينوس وابن سينا ٠

★★★

لقد انطلقت فى أيامنا حيوية جديدة فى بلادنا تجدد القيم والأوزان فى معانى الحياة والاجتماع والرقى ٠ ولكننا لا نزال فى اختلاط وارتباك وتردد لا نعرف هل نأخذ بالقيم القديمة أم بالقيم الجديدة ٠

ما هى النهضة ؟

هل هى القيم القديمة ؟

ان أسوأ ما اخشاه أن ننتصر على المستعمرين ونطردهم ٠

وأن ننتصر على المستغلين ونخضعهم ٠ ثم نعجز عن ان نهزم القرون الوسطى فى حياتنا ونعود الى دعوة : عودوا الى القدماء ٠

هل نعيد مأساة ابساماتيك ؟ هل يعنى الرقى والتقدم أن ندفن موتانا فى سقارة ؟

★★★

القـرون الوسـطى

تطلق عبارة « القرون الوسطى » على فترة من الزمن تبلغ نحو الف سنة ، تبتدىء من سقوط الدولة الرومانية الغربية سنة ٤٧٦ على يـد الجرمان وتنتهى بسقوط الدولة الرومانية الشرقية سنة ١٤٥٣ على يد الأتراك ٠ وبدهى ان هذا التحديد بالسنوات هو اصطلاح تاريخى فقط ٠ والا فان الواقع يثبت أن بذور القرون الوسطى ظهرت فى الدولة الرومانية منذ القرن الأول للمسيح ، كما ان هذه القرون لم تنته بسقوط القسطنطينية ٠

ولكى ندرك مدى الرقى الذى يتمثل فى النهضة أو النهضات الأوربية يجب ان نعرف عمق الانحطاط الذى سبق هذا الرقى ٠ أى يجب ان نعرف الهاوية التى هوى اليها الفكر البشرى فى القرون الوسطى ٠

والقرون الوسطى غير « القرون المظلمة » وان كان كثيرون يطابقون بينهما ٠ والمعول عليه الآن أن تطلق صفة الظـلام على السنين الخمسمائة الأولى ، أى من سنة ٤٧٦ الى سنة ٩٧٦ ، لأن هذه الفترة كانت فى أوربا فترة الركود الفكرى ٠ أما بعد ذلك فاننا نجد بوادر النهضة وبواكيرها ٠

وقد قلنا ان بذور القرون الوسـطى ترجـع الى الدولة الرومانية ٠ وهذه الدولة التى بقيت متماسكة خمسة قرون متوالية

كانت قوتها تنحصر فى هذا التماسك · ولكن منذ القرن الأول بدأت عوامل التفكك تعمل فيها حتى اذا كان القـــرن الثالث والرابع استفاضت الفوضى وأغار الجرمان على جسم الدولة · ولكن يجب هنا ان يذكر القارىء ان الغارة لم تكن أجنبية لان هؤلاء الجرمان كانوا منذ القرن الأول للميـــلاد يتسربون الى الدولة ويسرون فى عروقها ، تؤلف منهم الجيوش الجرمانية المحضة لرد غارة الجرمان ويعين منهم القواد · حتى اذا كانت الغارة الأخيرة لم يكن الجيش المغير أجنبيا لانه كان يجد اينما حل اناسا من الشعب الذى ينمى هو اليه ·

وكان يربط الدولة أيام عزها جميعها امبراطور يعبده جميع السكان ويضعونه فى مصـــاف الآلهة · وكان لهم جميعهم قانون واحد تجرى أحكامه عليهم هو القانون الرومانى · وكانت الدولة مـــع ترامى أطرافها تتصـــل بالدروب الرومانية فتنتقل اخبارها وجيوشها ومديروها بسرعة فائقة ·

أما أيام الضعف والتضعضع فقد طرأ الفســـاد الى مكامن القوة ومراكز الاتحاد ، وأول ذلك ان استنت ســـنة فى انتخاب الامبراطور جعلت للجيش سلطانا على الانتخاب فصار هو الذى يولى ويعزل · وصارت الحروب الأهلية تنشب بين جيوش الدولة لأن بعضها يناصر امبراطور دون الآخر · ثم دخلت المسيحية فمحت عبارة الامبراطور ومحت بذلك وحدة الدولة ووحدة الولاء · وتفشى الترف فى القصر أو القصور الامبراطورية وكثرت تكاليفها وأصبحت تكاليف الجيش عبئا كبيرا على المنتجين فى الأمة ، وهم جمهـور المزارعين ، فزادت بـذلك الضرائب وصـــارت جبايتها التزاما · لا يعرف المزارع كم يجب عليه ان يؤدى ، وانما على الملتزم ان يؤدى للدولة مبلغا معينا من المال من ناحيته ، وله لقاء ذلك حق الاستعانة بالجيش فى هذه الجبـاية الظالمة التى كانت تقع بأشـدها على

المزارعين النشيطين · واستوى بهذه الضرائب المجد والمتراخى ، لأن الملتزم صار يأخذ كل ما يجده من الغلات وصـــار الفلاحون يهجرون القرى الى المدن حتى اضطر الامبراطور الى منعهم من هجرة قراهم · ومن هذا المنع نجد البذرة الأولى للعهد الاقطاعى ، حين أصبح الفلاحون عبيــدا لمواليهم · وقـد بقيت العبودية فى فرنسا الى سنة ١٧٨٩ حين هبت الثورة الكبرى · ففى مدة القرون الوسطى نجد انه كان لا يجوز للعامل فى الضيعة ان يتركها الا باذن مولاه ·

ثم كان تفشى الرق سببا آخر للضـعف والسقوط · وامتلأت الدول بالأسرى الذين بيعوا رقيقا · ووجد أصـحاب الضياع أن استخدام العبيد خير من استخدام العامل المأجــور وأوفر عليهم وأبلغ ربحا · فاستكثروا من العبيد وعمت الفاقة طائفة العمـال الرومانيين ·

وساءت الزراعة وقلت الحاصلات فاضـطرت المدن الكبرى الى أن تتجر وتتبادل سلعها مع الأقطــار البعيدة دون الريف الرومانى · فانتقلت النقود من رومية الى هذه الأقطار ، وقلت بين الرومانيين ، حتى كان الاباطرة ينزلون عيار الذهب فى الدينار من وقت لآخر ، أى ان النقد « تضخم » فنقصت قيمته وزادت اثمـان السلع · وعمت الفاقة · وتناقص السكان · وكان هـذا التناقص مغريا لقبائل الجرمان بالتسرب والانســلال رويدا ثم الغــارة الأخيرة ·

وقد ذكرنا المسيحية من حيث أنها محت الوحدة الرومانية التى كانت تتجسم فى عبادة الامبراطور · ولكن دخول هــذه الديانة الجديدة على ما نرى فيها من سمو المبادىء ونبالة الحيــاة التى تنشدها ، كان سببا كبيرا فى هدم الدولة ، فقد حدث شقاق بين أبناء الأمة قطع اتحادها · وحسب القارىء أن يعرف ان «قسطنطين»

أول الأباطرة الذين آمنوا بالمسيحية ترك رومية وأسس هذه العاصمة الجديدة فى شرق الدولة لكن لا يرى المعابد الوثنية وهو فى ذلك مثل « اخناتون » حين هجر طيبة ورحل الى تل العمارنة يؤسس عاصمة جديدة لا يرى فيها صنم آمنون وانما يرى رع .

وظهرت الكنيسة منذ أول ظهورها بمظهرها الذى عرفت به أيام القرون الوسطى فأحرقت الكتب وهدمت الأصنام والمعابد . ولذلك يجب ان نرد « محكمة التفتيش » التى استطار شرها مدة القرون الوسطى الى هذه البذرة الأولى التى ألقتها الكنيسة أيام تضعضع الدولة الرومانية .

والقارىء لتاريخ الدولة الرومانية لا يسعه الا ان يقابل بين تضعضعها ثم سقوطها وبين ما جرى للدولة العباسية فى بغداد . فالجرمان وانسلالهم الى جسم الدولة ، ثم غارتهم الأخيرة ، يشبهون الأتراك وانسلالهم الى جسم الدولة العربية فى بغداد ثم طغيانهم ثم محو الدولة على أيدى المغول . وجباية الضرائب وانحطاط الزراعة فى العراق لا يختلفان كثيرا عما كانت عليه الحال فى ايطاليا . حتى المقابلة فى الآداب لتجوز هنا أيضا . فان الأدب العربى فى القرنين الأول والثانى لا يعرف التزاويق والألاعيب البلاغية ، وهو فى ذلك مثل الأدب الرومانى فى القرنين السابق والتالى للميلاد المسيحى . ثم يشترك فى التزاويق السخيفة ويذهب اللباب وينحط التفكير وتبقى القشور والبهارج . وينسى الرومانيون لغتهم اللاتينية وينسى العرب لغتهم العربية ... ويأخذ امراء الجرمان فى تأسيس الامارات المستقلة عن رومية ، ويأخذ امراء الأتراك والمماليك فى تأسيس اماراتهم المستقلة عن الخلافة .

وكما اعقب الدولة الرومانية قرون من الظلام ساد فيه التنطع الدينى كذلك أعقب الدولة العباسية قرون من الظلام ساد فيه هذا التنطع نفسه .

انحطاط الثقافة فى القرون الوسطى

ليس شك فى ان السبب الأساسى لانحطاط الثقافة وارتقائها أو صبغها بلون خاص وتوجيهها الى ناحية معينة دون أخرى هو السبب الاقتصادى · فان الحال الاقتصادية كما تقرر لون الحضارة الراهنة كذلك هى ، الى حد بعيد ، تقرر لون الثقافة الراهنة · ويكفى القارىء ان يعرف هنا ان الثقافة فى أيامنا لا تفشو وتتفرع ، وان التوليد فى الفنون لا يزكو ، الا اذا كثر القراء وتوافرت المدارس وتعددت المطابع وراجت سوق الكتب وصار العلم والأدب يدر على العالم أو الأديب ربحا · وهذه حال تحتاج الى الثروة والسعة والرخاء · اما اذا ضاقت البلاد بعيشها فلم تستطع انشاء المدارس للكافة وتغذية المطابع واعالة العاملين فى الأدب والفنون والعلوم فان ميدان الثقافة يضيق ويكون من ضيقه ضمور الذهن الانسانى بل ضمور الشخصية الانسانية ·

فعلى القارىء ان يذكر ان وراء كل نهضة ثقافية حركة اقتصادية بعثت عليها ونبهت اليها · ونحن نقنع الآن بأن نشير الى ان ميدان التجارة ارفق للثقافة من ميدان الزراعة · فميدان الزراعة لركودها يقنع بما يشاكلها من ثقافة راكدة · بينما التجارة تطوف فى انحاء العالم وتفتح الطريق للجغرافيا والتاريخ والملاحة والفلك · بينما الصناعة تحتاج الى مكتشفات متوالية عن الكيمياء والطبيعيات وغيرهما من العلوم ·

كانت ثقافة مصر (الزراعية) فى أكثرهـا عقائد جزميـة ومعارف مشتقة تخدم الدين • ولم يكن المصريون يعرفون النظرية أو الرأى ، بل يمكن ان نقول ان أدبهم وفلسفتهم لـم يستقلا يوما من الأيام عن الدين • ثم ظهرت يونان (التجارية) فظهـرت الفلسفة مستقلة من الدين كما استقل الأدب أيضا منه • ثم ظهرت النظرية الهندسية وعرف شىء من الطبيعات • ثم ظهرت رومة (الصناعية) التى كان يتعجب اليونانيون أنفسهم مما فيها من منشآت هندسية ، فزكت الثقافة وبعدت عن الرجم الفلسفى الذى كان يحبه الاغريق واتجهت نحو المحسوسات والعمليات •

ثم جاء الانحطاط مدة القرون الوسطى ، وعمت الفاقة الناس فأقفلت المدارس ولم يعد هناك جمهور قارىء يعيش معه النساخون فندرت الكتب وزالت الطبقة المتوسطة • وجاءت المسيحية فزادت فى تفاقم الكارثة ، فانها كافحت المدارس القديمة وحاربت العلمـاء • وانحصرت الثقافة عندئذ فى صوامع الرهبان ، وهؤلاء لم يقصدوا منها سوى غاية واحدة هى خدمة الدين • وهذا هو الانحطاط •

فاذا أنت أردت ان تلخص لنفسك معنى الانحطاط فى القرون المظلمة ، وكيف هجر الذهن البشرى الفلسفة اليونانية والهندسـة الاقليدية والنزعة العلمية الصناعية فى رومية الى الدين والغيبيات فى صوامع الرهبان ، فاعلم ان هذا المعنى ينحصر فى ان الثقافة قد أصبحت تخدم شئون العالم الثانى بدلا من ان تخدم الانسان على هذه الأرض •

ففلسفة أرسـطوطاليس أو أفلاطون لم يعد يقرأها الناس كى يصلحوا هذا العالم وينشدوا فيه سعادة دنيوية تزيد أجسامهم صحة وعقولهم نورا ومدنهم نظـافة وحكوماتهم عـدلا • وانما صـاروا يدرسونها كى يعرفوا منها كيف يعيشون بعد الموت ، وما هى الطبيعة الألوهية • وبعبارة أخرى نقول أن الانحطاط فى القرون المظلمة انما

يعنى انتقال الثقافة من البشرية والمادية ، اى خدمة البشر ومعالجة المادة ، الى الدينية اى خدمة الدين والغيبيات ·

ولهذا كانت النهضة قائمة على حركات بشرية ، أى النظر الى هذه الدنيا كأنها الغاية التى ليس وراءها غاية تخدم · وأننا نحن البشر يجب ان تكون لنا آداب وفلسفات وعلوم لا تمت بأى صلة الى الغيبيات · وان علينا ان نعتمد على أنفسنا فى تحقيق السعادة على هذه الأرض نفسها وألا نزهد عنها ايثارا عليها للعالم الثانى ، كما هى النظرة الغيبية · ومما يضر الشاب المصرى ضررا كبيرا جدا ان نخدعه ونوهمه ان النهضة الأوروبية التى أخرجت أوروبا من ظلمات القرون الوسطى تعنى شيئا آخر ·

هذه النهضة تتضح لنا فى ثلاث حركات بشرية :

١ ــ الحركة البشرية الأولى · وهى التى ظهرت على أشدها فى القرن الخامس عشر فى ايطاليا ثم انفجرت فى أوربا ، وقد اغتذت بدرس الاغريق والرومان وأخرجت الفنون الجميلة من قيودها الدينية السابقة فجعلتها تخدم البشر ·

ولم يتجه الأدباء الى الاغريق والرومان كى يحاكوهم ، فان المحاكاة فى نفسها انحطاط · وانما هم اتجهوا اليهم لأنهم رأوا منهم اشخاصا يشبهونهم من حيث الرغبـــة فى مزاولة الفنون والعلوم والصناعات نشدانا للسعادة والاستمتاع فى هذه الدنيا ، فاتجاههم هذا ليس سببا اصليا للنهضة وانما هو احدى نتائجها · أما السبب الأصلى فيرجع على الأرجح الى عوامل اقتصادية · وقد تستطيع ان تقول بعد ذلك ان وقوف الأوربيين على ثقافة الاغريق والرومان قد دفعهم الى الامام فى نهضتهم · وقد يكون هذا صحيحا · ولكننا عندئذ لا نرى فى هذا الدفع سوى ان النتيجة السابقة قد استحالت الى سبب ·

وكما اتجه الناهضون من الأدباء الى الاغريق والرومان كذلك اتجه العلماء منهم الى العرب ، فعرفوا الطريقة الجديدة فى درس العلوم بالتجربة ونشدان الفائدة العملية المحسوسة منها ·

٢ ـ الحركة البشرية الثانية التى ظهرت فى فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر وكان القائمون بهـا ديدرو وفولتير وروسـو وغيرهم من الأدباء والفلاسفة · وهى الحركة التى أعـدت العـدة الذهنية للثورة الفرنسية الكبرى · بل كانت هى نفسها الثورة التى كان منها اعلان حقوق الانسان · وهى حقوق ما زال كثير من الأمم محرومين منها الى الآن ·

٣ ـ الحركة البشرية الثالثة هى التى ظهرت عقب ظهور داروين وكتابه (أصل الأنواع) فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر · فانها سمت بالانسان الى مزكز السيادة للدنيـا وجعلته ينظر الى مستقبله كأنه طوع ارادته · وهى حركة ما زلنا نحن فى غمرتها ولم ننته الى نهايتها ·

واذا تأمل القارىء هذه الحركات الثلاث كما سنفصلها ألفى هذا الذى نقوله صحيحا · وهو أن النهضة لم تعن فى المـاضى ، وهى لا تعنى الآن شيئا ، سـوى « البشرية » · أى ان البشر ، أو الانسان ، يجب ان يشتغل ويعتمد على نفسه فى هذا العالم ويعمل لحضارته وسعادته فى جراءة وفهم · اذ ليس له فى هذا الكون كله ما يعتمد عليه سوى عقله · وليس له خلاف هذا العالم عالم آخر يمكنه ان يطمع فى تحقيق سعادته فيه · وان الانحطاط لم يعن فى القرون الوسطى ، وهو لا يعنى الآن فى الشرق أو الغرب ، سوى قصر الذهن البشرى على خدمة « ما وراء الطبيعة » ونشدان السعادة والهناءة فى غير هذه الأرض والاقتصار من الفنـون والعلوم على خدمة الآراء بل العقائد الدينية ·

***

قصـة الـرقم ٤

لو اننا سألنا عن السمة الغالبة للتفكير فى القرون الوسـطى لكان الجواب انها السمة الغيبية ·

ومعنى ذلك ان المؤلف كان ينظر للأشياء نظرا غيبيا لا يبرره العقل وانما تبرره العقائد · أى أنه كان يرى أو يشعر بقوة خلف الظواهر الطبيعية · وهذه القوة لا تنزل على أصول العقل · فالنظر الغيبى يقتضى الايمان بالسحر والشياطين وحساب الجمل والتنجيم ، وهذه كلها نراها واضحة عند جميع المؤلفين الذين كتبوا فى القرون المظلمة ·

ولكن هذه السمة تستتبع سمات أخرى · منها ، اننا نعـدم الثقافة المنظمة ونجد بدلا منها معارف ليست لها غاية أو هدف · ومنها ان المؤلف ، وانما هو يبغى خدمة الكنيسـة ، يتجه بتأليفه نحو خدمة الشعب · ومنها العناية بالسلف والشعور بأن النقص الذى نراه فى العالم سواء فى الاخلاق أو الحكومة أو غيرها انمـا هو فساد حاضر حديث بعد اصلاح سابق · وان السبيل الى معالجته تقتصر على الرجوع الى طريقة السلف دون التفكير فى ابتكار طريقة جديدة للمستقبل ·

ويجب ان نقول اننا نحن أنفسنا لم نتخلص الى الآن من هذا

النظر الغيبى كل التخلص · والكتب العربية القديمة وبعض الحديثة تنظر هذا النظر فى كثير من النواحى ·

واذا نظرنا نظرة عاجلة فى كتاب « حياة الحيوان » للدميرى وجدنا ان هذا الموضوع العلمى ، أى الحيوان ، ينظر اليه المؤلف نظرة غيبية · ونجد فيه هذه السمات ·

١ ـ انه يتكلم احيانا عن السحر والعفافيت كأنها حقـــائق ملموسة ·

٢ ـ انه ينظر الى السلف كأنهم المثـل الأعلى · ويعتمد فى معارفه على رواية الكتب القديمة ·

٣ ـ أنه يرى أن الغاية الوحيدة للمعارف هى خدمة الدين ، ولذلك لا ينسى عندما يتكلم عن البرغوث أو الصرصور ان يقول هل أكلهما حلال أو حرام ؟

٤ ـ ان المعرفة عنده ليست ثقافة يقصد منها الى غاية معينة وانما هى حقائق تحتشد فى ذهنه بلا نظام أو قصد ، حتى لقد أدمج فى حياة الحيوان تراجم الخلفاء وتكلم فيه عن الطب والشريعـــة والصرف والنحو والفلك ·

وقد اخترنا « حياة الحيوان » لأن هذا الموضوع ، الحيوان ، لا يمكن إلا أن يكون موضوعا علميا تدون فيه المشاهدات ويقتصر عليها · ولكن كتاب القرون الوسطى لم ينسوا عند ذكر الحيـوان قصة الهدهد مع سليمان يضيفونها جنبا الى جنب مع مشـــاهدة علمية دقيقة · فهم ينظرون للدنيا نظـرا غيبيا ويعتمدون فى كل ما يكتبون على السلف ، وقد يحق لنا أن نقف هنا فنتساءل : لماذا نظر الناس فى تلك القرون هذه النظرة الغيبية ؟ ولماذا لم يسيروا على النهج الذى نهجه الاغـــريق القـــدماء مثـــل افلاطون أو أرسطوطاليس ؟

وهنا يجب ان ننبه الى ان هذا النظر الغيبى يرجع فى بعض نواحيه الى الاغريق ، كمـا يتضح من أفلاطون · ثم ان الانحطاط الذى شمل الدولة الرومانية وما أعقبه من فوضى قد حصرا التعليم بين طبقه صغيرة جدا من الناس · واذا انحصر التعليم كبر فى ذهن المتعلم شأن السلف · ثم ان مقاومة الدين للثقافة القديمة والغـاء المدارس الوثنية جعلا التعليم كله دينيا فأصبح المتعلم ، الذى نشأ على الفصل بين الروح والجسم والانسان والشيطان ، ينظر هذه النظرة نفسها الى الأشياء الأخرى ويصر ، بالعقلية التى اكتسبها من التعليم الدينى ، على أن يرى فى الكواكب والأرقام معانى أخرى ظاهرهما الطبيعى · ثم لما اعتمد المتعلمون الاعتمـاد الكلى على السلف زالت ثقتهم بأنفسهم فكفوا عن التفكير والابتكار واتجه نظرهم الى الماضى دون المستقبل ·

ويمكننا دون ان نخطىء ان نسمى القفون المظلمة ، سواء بين العرب أو الغربيين ، بالقرون الغيبية · وهى سواء عند الاثنين فى السمات · هنالك نجد العلم فى الأديان يحمله الرهبان ، وهنا نجد الغيبيات تغير على الكيمياء والشعر والتاريخ والأدب عامة ·

وارجح الظن ان النظر الغيبى لم يبلغ عند العرب ما بلغه فى أوربا ، ولذلك يمكننا ان نقول ان الظلام لم يعم العالم الغربى بالمقدار الذى عم به العالم الأوربى ، وان كنا نحن ما زلنا نتعثر بهذا النظر الغيبى الى وقتنا هذا ·

وقد ذكرنا كتاب « حياة الحيوان » للدميرى ونحن نذكر الى جنبه كتابا آخر لراهب انجليزى يدعى « برتفرت » الذى مات سنة ١٠١١ للميلاد حين انحدر الذهن الأوربى الى احط دركاته · والكتاب خليط من المعارف ، يكفى القارىء ان ننقل منه هذه النبذة من كلام المؤلف عن الرقم ٤ حيث يقول :

« ان الرقم ٤ هو رقم كامل وهو يتحلى بفضائل أربع هى الاستقامة والاعتدال والجلد والتصبر · ثم هذا الرقم يتتوج بالفصول الأربعة فى السنة · وهــذه أسماؤها : الربيع والصيف والخريف والشتاء · ثم هو تزينه أيضا مذاهب الانجيليين الأربعة الذين يقال انهم الحيوانات الأربعة التى ذكرت فى كتاب حزقيال النبى المشهور · ثم هذا العدد هو عدد محترم اذ انه اسم الله (فى اللاتينية) وهــو أيضا اسم أول انسان خلقه الله وهو آدم · ثم هو رقم له جاذبيــة لا يمكن ان تمر بها ونحن سكوت ، وانا اعنى بذلك ان هناك زمنين للاعتدال الشمسى وزمنين للانقلاب الشمسى ، وهناك أربــع ريــاح أصلية هى الرياح الشرقية والغربية والشمالية والجنوبية ·

« وهناك أيضا أربعة عناصر : الهواء والنار والماء والتراب · وهناك أربع جهات للدنيا هى الشرق والغرب والشمال والجنوب · واذا درسنا هذه الأجزاء بعناية وجدناها جميعها فى اسـم (آدم) طبقا للأعداد الأغريقية » ا هـ ·

وقليل من المؤلفين العرب من انحط الى هذه الدرجة ، بل لا أكاد أعرف واحدا بلغها · وهو ، أى برتفرت ، فى كل ما يقوله يعتمد على أحد الثقات من السلف حتى جدول الضرب لا يأتمن فيه نفسه بل يرده الى أحد السالفين · وعنايته بالألفاظ لا تقــل عن عناية الدميرى ·

على أن هذه القطعة التى نقلناها تدل القــارىء على النظر الغيبى ، وهو أنه يرى علاقة واضحة بين الاسم اللاتينى لآدم وبين ظواهر الكون · أى أن الانسان (كما قال ابن سينا) هو العــالم

الاصغر للعالم الأكبر ٠ ومن هنا تبرير التنجيم لاننا نحن والنجوم من طبيعة واحدة ، بل من هنا نسبة الصفات الانســانية للأرقام والأجسام والايمان بالسحر والأرواح والشياطين ٠

وقد تخلصنا من كثير من هذه الثقافة المظلمة ، ولكن النــور الجديد ، نور العلم ، لم يقشعها كلها ٠

★★★

فضل العرب فى القرون الوسطى

عندما نقرأ كتب التاريخ الأوربية نجد اخبارا صغيرة تطفو على تيار الحوادث نفطن منها الى الدخائل المستورة فى الارتقاء الأوربى وتطور الثقافة ، ونلمح فيها عقول العرب وأيديهم ٠

فمن ذلك مثلا اننا نجد ان الأوربيين كانوا يرحلون الى مدن الاندلس كى تعلموا فيها كما يرحل أبناؤنا هذه الأيام الى مدن أوربا لمثل هذه الغاية ٠

ثم هناك أيضا هذه التهمة التى كان يتهم بها المفكرون مثل « روجر بيكون » ٠ فان هذا الراهب الذى قال بالتجربة العلمية ودعا الى الاختراع والايمان اتهم بالاسلام ٠ لأن المسلمين كانوا فى ذلك الوقت دعاة للعلوم ، فكانت كل فكرة جديدة تعزى اليهم ويتهم قائلها بالكفر لهذا السبب ٠أى انه لم يكن مسيحيا مخلصا ، اذ هو قد أخذ بعادات المسلمين فى التفكير ولا بد انه آمن كذلك بدينهم ٠

حتى ان « جان دارك » التى حاربت الانجليز وطردتهم من فرنسا ، عندما قالت بأنه يجب ألا يكون هناك وسطاء بين الانسان وربه (مثل الكهنة) اتهمت أيضا بالاسلام ٠ اذ ليس فى الاسلام كهنة ٠

وكلنا يعرف قصة « روجر الثانى » ملك صقلية الذى استخدم العالم الجغرافى المسلم الادريسى ٠ فانه استقدمه من أفريقيا الشمالية

وكلفه تأليف كتاب فى الجغرافيا كما كلفه أن يصنع له كرة تمثل الأرض · وقد صنعها له من الفضة · وهذا فى الوقت الذى لم يكن الأوربيون يسلمون فيه بكروية الأرض ·

والى هذا أيضا يجب أن نذكر عشرات الكتب العربية التى ترجمت الى اللغة اللاتينية التى كانت لغة الثقافة الى القرن السادس عشر ·

وقد كان العرب فيما بين سنة ٧٠٠ وسنة ١٣٠٠ ميلادية أرقى الأمم فى العالم كله بلا اســـتثناء · وعلة ذلك انهم كانوا يملكون البحار · وكان البحر المتوسط أقرب الى ان يكون بحيرة عربية من ان يكون مجازا للملاحة الدولية · ثم كان المسلمون من العرب وغير العرب ، يقطنون أقاليم متراحبة من الصين شرقا الى المحيط الاطلنطى غربا · وهذا التراحب جعلهم يختلطون بالكثير من الأمم ويعرفون الكثير من الصناعات والتجارات ·

ولنضرب مثالا على ذلك موسى ابن ميمون الفيلسوف المصرى اليهودى أيام صلاح الدين · فانه كان يقيم فى القاهرة ، وكان له أبناء يتجرون بالجواهر وغيرها فيما بين الهنـــد شرقا والأندلس وغـــربا ·

وأعظم ما يرقى بالثقافة ويزيد المعارف ويحرك النقـد بالمقارنة هو الاختلاط بين الأمم · ولذلك كانت الأمم العربية ، لاتساع رقعـة الأقطار التى كانت تسكنها ولاختــلاطها بالعديد من الأمم ، عـلى اتصال بالثقافات وعلى اختمار وتطور لا ينقطعان ·

ونستطيع ان نقول ان هذا الاتســاع العــربى كان أحـــد الأسباب ، بل ربما أعظم الأسباب ، للنهضة الأوروبية التى انفجرت فى القــرن الخــامس عشر · ذلك ان العرب نقلوا الى أوربا أربع وسائل للثقافة هى :

١ ـ الأرقام الهندية ·

٢ ـ صناعة الورق ·

٣ ـ الكتب الاغريقية القديمة ·

٤ ـ التجـربة العلمية ·

ولنبدأ بالوسيلة الأولى وهى الأرقـام · فانهـــم فى أوربا يسمونها « العربية » ونحن نسميها الهندية · وهذه الأرقام هى الآن لغة العالم · ومن المحال قطعا أن يتقدم العلم بلا أرقام ، ونعنى بلا أرقام هندية · وقد كانت الأرقام الشائعة فى أوربا قبل ذلك هى الأرقام اللاتينية التى لا تصلح الا للعد البسيط . أما حيث نريد الآلاف والملايين فانها لا تصلح بتاتا ·

وبظهـور هـذه الأرقام فى مـدن أوربا شرع العـلم يخطو ·

ومن عجيب ما نذكره أن الأرقام الأوربية هى أرقامنا الأصلية التى سلمناها الى أوربا ، ولا يزال المغرب الأقصى يستعملها ، أما أرقامنا الحاضرة فجديدة · ولا تزال كلمة « الصفر » مستعملة بهذا اللفظ فى أوربا للمعنى الذى نقصده منه فى حسابنا · وكذلك كلمة « الجبر » وهو اختراع عربى صرف ·

واذا كان فضل الاختراع للهنود فى هذه الأرقام فان فضـــل نقلها الى أوربا واشاعتها فى انحاء العالم للعرب · واذا كانت أوربا تعتز بالعلم ، وهو قوتها وحضارتها ، فان هذا العلم ما كان لينشأ أو ينمو بدون الأرقام الهندية ·

ثم هناك الورق الذى عرف العرب صناعته فى الصين وأقطار المغول والتتار فنقلوا هذه الصناعة الى افريقيا ثم الى الأندلس ، ثم الى أوربا ·

وهل يمكن أن تكون هناك ثقافة ، ونعنى ثقافة عصرية تصل الى أفراد الشعب بالجريدة اليومية مثلا ، بلا ورق ؟
هذا غير ممكن ٠

لقد عرفت الأمم القديمة « ورق » البردى المصرى ، ولكنه لم يكن يكفى الحضارة المصرية ٠ ولم يكن ليتسع لضروب الاتقان والدقة فى ابراز الحروف مثل الورق المصنوع ، حتى يجعل القراءة ميسورة واضحة تحب ولا تمج ٠

الأرقام العربية والورق هما بلا شك أعظم الوسائل للثقافة وللحضارة الأوربيتين أو الغربيتين فى العصر الحاضر ، والفضل فى نقلها الى القارة الأوربية يعود الى العرب ، والعرب وحدهم ٠

بقى هناك فضل ثالث يقول به الأوربيون ويكبرون من شأنه ، هو أن العرب نقلوا بعض الكتب الاغريقية القديمة ، مثل مؤلفات أرسطوطاليس وأفلاطون وفيثاغورس ونحوهم ، الى العربية ٠ فنقل الأوربيون هذه المؤلفات من العربية الى اللاتينية ٠

واعتقادى ان الفضل هنا ليس كبيرا ، وقيمته انسانية أكثر مما هى ثقافية ٠ أى أنها ربطت أوربا بالاغريق القدماء ، وفتحت لهم آفاق الماضى وجعلتهم على وجدان بأن الثقافة البشرية موصولة وليست مقطوعة ٠ وبكلمة أخرى نقول ان قيمة الثقافة الاغريقية التى نقلها العرب ، ثم الأوربيون عن العرب هى تاريخية ٠ ودراسة التاريخ هى دراسة انسانية أكثر مما هى أدبية أو علمية ٠

بل نستطيع أن نقول ان دراسة الاغريق القدماء قد عطلت أحيانا الارتقاء الثقافى ٠ فان « فكريات » أفلاطون جمدت التفكير

البشرى ، بل لا تزال تجمده ، كما ان ارسطوطاليس كان عبئا على الثقافة الأوربية بضعة قرون لأن كلماته كانت مقدسة ، حتى أن برلمان باريس عين عقوبة لكل من يخالفه أو يعارضه ٠

ان الحضارة الأوربية الحاضرة هى حضارة العلم الذى ينهض على التجربة ٠ وقوة أوربا هى قوة الصناعة التى تنهض على العلم ٠

وفيما بين سنة ١٠٠٠ وسنة ١٣٠٠ لا نكاد نعرف أمة تؤمن بالتجربة وتقبل عليها غير الأمم العربية ٠ فصحيح ان كثيرا من تجاربها كان مخطئا ، اذ كان القائمون بها ينشدون هدفا خياليا هو احالة المعادن الخسيسة الى معادن ثمينة ، ولكنهم فى غضون هذه التجارب عثروا على معادن ثمينة فى الكيمياء كان لها بعض الشأن فى الطب وغيره ٠

ولكن ليست العبرة بما عثروا عليه وانما بالأسلوب الذى اتبعوه ، وهو الوصول الى المعارف الجديدة بالتجربة اليدوية ، وهذا هو العلم ٠

لأن العلم ليس تفكيرا مجردا يفكر به العالم وهو على كرسيه أمام منضدته فقط ، فهذا التفكير وان يكن ضروريا يحتاج الى التصحيح والتطبيق التجربة فى المعمل ثم المصنع ، وهذا هو الأسلوب الذى يعزى الى علماء العرب ٠

والأمة العربية فى عصرنا الحاضر قد تخلفت عن أوربا لأنها أهملت العلم والصناعة ، ولن تستطيع أن تستعيد مكانتها فى قافلة الارتقاء البشرى الا اذا أخذت بالعلم والصناعة ٠

★★★

بذور الحـركة البشرية الأولى

كلما ذكر الانسان القرون الوسطى خطر للذهن تسلط الكنيسة وحجرها عـلى الحـرية الذهنية · وليس شـك فى هـذا التسلط وهـذا الحجـر ·

ولكن يجب ألا ننسى ان الانحطـاط لا يعنى ان هنـــاك اذهانا متنبهة قد حجرت عليهـا الكنيسة وصـارت تمنعها من التفكيـر الحر · لأن هذه الحال هى حـال اليقظـة والتنبـه على الرغـم من هـذا الحجـر · وانمـا حقيقة الانحطـاط فى القـرون الوسطى تعنى ان الذهن البشرى نفسه قد انحط ، فصار ينظـر الى الدنيـا من زاوية العقيدة والمذهب ، وأخذت العقائد مكان الآراء · والجزم مكان الشك والبحث ·

فمنذ القرون الأولى للمسيحية أخذ النـاس ، أو تلك الأقليـة التى كانت تقـرأ ، يدرسون لغـاية واحـدة هى خـدمة الدين · وعندئذ أصبح الرجـل المثقف ، وهـو فى الغـالب راهب ، يدرس السـموات السـبع كمـا ندرس نحـن الآن جغـرافية افريقيـا · وهو يفعـل ذلك ، لا لأن الكنيسـة تمنعه من درس الطبيعة أو العلم. بل لأن هـذا هو مزاجه الذى اكتسبه بعد مئات من السنين عـدم فيها الناس كتب الاغريق والرومان أيام نهضتها وأصبح الكتـاب المقدس موضوع درسهم يقرأونه ويغلقون عليـه ·

وهذا هو « العصر الجليدى » الذى أصاب الذهن البشرى فى أوربا • اذ أصبحت الفلسفة غيبيات غايتها اثبات حقائق الدين ورواية الرسل • وزال الروح العلمى تمام الزوال • فان هذا الروح كان قد ابتدأ بداية ضعيفة جدا فى الاسكندرية ، ولكنه ما كاد ينهض حتى مات عقب زوال البطالمة • وبقيت الحال على ذلك الى أن عاد يتعثر على أيدى العرب فى الأندلس •

والمشهور على القرون الوسطى ان النقل فيها أخذ مكان العقل • ولكن هذا القول ليس صادقا بأكمله • فانه اذا كان من المسلم به ان العلماء الرهبان كانوا يعتمدون كثيرا على الرواية وما يشبه العنعنة ، فانهم كانوا يعتمدون فى أواخر القرون الوسطى على العقل • وذلك انهم كانوا يفكرون ، ولكن تفكيرهم لا يخرج عن حدود الدين ، ولذلك جعلوا الفلسفة الأوربية لاهوتا • ولذلك أيضا نجد فه النهضة الأوربية ثلاث نزعات ذهنية مختلفة تناقض نزعات القرون الوسطى •

١ ــ النزعة الأولى هى الرجوع الى القدماء فى الفنون ، وتكاد هذه الحركة تكون نزعة وثنية • فاننا نرى الرسام أو المثال ، مع رغبته فى خدمة الدين • لا يتقهقر أمام موضوع وثنى • فانه يرسم أو ينحت الآلهة كما يرسم أو ينحت الملائكة أو العذراء ؛ لا يشعر وهو يفعل ذلك أنه تلبس بالكفر والاثم كما كان يشعر أسلافه بين القرنين الثالث والعاشر •

٢ ــ النزعة الثانية هى درس الكتب التى لا تتصل بالدين • كأن الانسان قد شعر فى النهضة ان آفاق الذهن تتسع لغير الدين وانه يجب عليه ان يحقق السعادة فى هذه الدنيا • وهذه الحركة تسمى « الحركة البشرية » لأن الناهضين اعتمدوا فيها على درس المؤلفات البشرية زيادة على درس المؤلفات الدينية •

٣ ــ أما النزعة الثالثة فهى الحركة العلمية • وهذه لقيت

بذرتها الأولى فى الأندلس عند العرب · وتكاد تكون اكتشافا جديدا للدنيا لأنها اعتمدت على التجربة ·

والقرون الوسطى لم تنته بتاريخ معين · فان سنة ١٤٥٣ هى حد عرفى لنهايتها · ولكنها كانت فى الحقيقة تنزاح عن الأذهان كما ينزاح الليل رويدا رويدا · ولذلك نجد بعد القرن الحادى عشر اضطرابات ذهنية ، كأنها ارتكاض الجنين فى الرحم ، تنذر بالميلاد القادم · ونحن نذكر هنا رجلين عاش كلاهما فى القرون الوسطى ونزع كلاهما نحو النهضة ·

وأولهما هو أبيلار (١٠٧٩ ـ ١١٤٢) فانه كان رجل دين قبل كل شيء ، ولكنه دعا الى الشك وجعل منه أساسا للايمان الصحيح · وعنده اننا اذا اصطدمنا بشيء لا يتفق مع العقل وجب علينا أن نعود للضمير · وهو يعتقد انه ليس شيء فى الدين لا يتفق والعقل ، ولكن اذا استبهم علينا شيء من ذلك فان علينا أن نلجأ الى ضميرنا · ومع انه قال ذلك فى حذر ، بل فى اعتذار ، فان مؤلفات حرمت بأمر من البابا ·

وأما الثانى فهو توماس الاكوينى (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) فانه ألف فى التوفيق بين العقل والدين · وهذا التوفيق هو فى النظر الحديث تلفيق ·

ولكنه مع ذلك محاولة من المحاولات الأولى للخروج من قيود الجزم الى ميدان الرجم أو الخروج من النقل الى العقل · فهو مثلا يعصر ذهنه كى يصل الى استنتاجات منطقية تثبت وجود الله ، ثم يبرر وجود الدين بأثره فى الأخلاق ، بما فيه من زواجر تزجر عن الشر والعدوان ·

ففى كلا الرجلين نرى جراءة على التفكير · ولكنا نرى ما هو أحسن من الجراءة فى ذلك الزمن ، وهو الرغبة فى درس

الكتب الأخرى التى لا تمت الى الدين · فكلاهما يدعـــو الى الثقافة البشرية والى درس الكتب الوثنية القديمة · وهنا اذن نرى بذرة هذه الحـركة البشرية التى ترى على أقواها فى النهضـة · وخلاصتها ان الثقافة يجب الا تقتصر على درس الدين ، بل يجب أن تتجاوز ذلك الى ما ألفه الناس أيضا ، وأن الانسان يجب عليه أن ينشد السعادة الدنيوية بدرس الثقافة البشرية ، كما عليه أن ينشـد الســعادة الأخروية بدرس الثقافة الالهية ·

وكما كانت « الغيبيات » مزاج المثقفين فى القرون الوسـطى أصبحت « البشرية » مزاج المثقفين فى أيام النهضــة · ومن هنا هذه الحركة ، بل هذه الحمى ، التى أصابت العقـــول فى أيام النهضة · فان المدارس والمجامع والأفراد نهضوا فجأة يبحثون عن الكتب القديمة بين مخلفات الاغريق والرومان ويدأبون فى دراســة ومناقشة آرائها لا يبـالون بما فيهـا من كفر أو وثنية ·

***

ونحن الى الآن ما زلنا نعيش فى سياق النهضة التى انفجرت فى النصف الثانى من القـرن الخامس عشر فى أوربا ، وبقيت فى انفجارها هذا الى نهاية القـرن الســادس عشر حين اتزنت وسارت سيرا وئيدا مطمئنا ، الى أن عادت فانفجرت مرة أخرى فى فرنســا فى آخر القرن الثامن عشر ·

وفى اسكوتلندا وغيرها من الأقطار الأوربيـة لا تزال تسمى دراســة الكتب الاغريقيــة واللاتينيــة « البشريات » · ومن هــذه التســمية التى ترجــع الى ما قبــل أربعــة قرون يدرك القــارئ هذا الفرق الذى ميزته اذهان الناهضين فى القرن السادس عشر ، فانهم شعروا أن أسلافهم كانوا يدرســون الموضــوعات التى تتعلق

بالدين ، وهى التى كانت تسكن الديور فى صوامع الرهبان أى « الالهيات » من الفلسفة واللاهوت والصوفية وتفسير الكتب المقدسة والتعليق على شرح القدماء فيما يتعلق بالدين · ولكن الناهضين انحرفوا عن هذه الثقافة ، أو كفروا بها ، وعمدوا الى الوثنيين من الاغريق واللاتين يدرسونهم · فكانت دراستهم لهذا السبب « بشرية » وليست « الهية » ·

وهذه الجراءة على الدراسة البشرية كانت أشبه الأشياء بالدعوة الى تقرير المصير للذهن البشرى ، أى ان للانسان الحق فى أن يقرأ ما يشاء ولو كان المؤلف من كفار الاغريق أو الرومان القدماء ، بل له أيضا أن ينتقدها · فسقطت بهذا الحق الجديد مكانة « أرسطاطاليس » وصار لأمثال (جليل » أن ينقده وأن يجرب التجارب لكى يثبت خطأه · وأصبحت « التجربة » طريقة جديدة للاقتراب من الحقائق وبحثها ·

وأول ثمرات الحركة البشرية الأولى هو « لوثر » المصلح الألمانى · وهو نفسه كان بذرة لنهضة أخرى هى الحرية الدينية · فانه ورث من النهضة حرية الذهن فأورث الناس حرية أخرى هى حرية الضمير · وقد كان هذا الرجل راهبا زار روما سنة ١٥١١ فرأى من نظام البابوية وأخلاق البابوات ما اسخطه ، ولكنه صمت وعاد الى وطنه · فلما كانت سنة ١٥١٧ بعث البابا برهبانه لكى يجمعوا من المؤمنين ثمن الغفرانات ، وكان على الراهب أن يعرض الغفران من العقاب فى الآخرة فيشتريه الموسر وينساله الفقير بالمجان ، ولكن لوثر لم يطق هذه النخاسة الدينية فعمد الى لوحة كبيرة وكتب عليها ٥٥ اعتراضا على بيع الغفرانات وعلقها على باب الكنيسة ·

وعلم البابا بهذه الفعلة فاستدعاه لسؤاله أو محاكمته · ولكن لوثر أيقن انه اذا سافر الى روما فانه لن يبرحها حيا · ولذلك

بقى فى مكانه يدعو الى مذهبه فيجد المؤيدين كما يجد المعترضين ، وعقدت له هيئة حاكمته وحكمت بحـــرمانه ودعت الجمهــور الى مقاطعته والا يؤاكله أو يعـادله أحـد • وأرســـل اليـه البابا « حرمانا » يجعله مطرودا من بركة الكنيسة ونعيم الآخـــرة ، فأخذ لوثر ورقة الحرمان وأحرقها علنـا بين الجمهـــور المعجب بجـرأته • ولم يقف عند هــذا الموقف السلبى • بل خـالف الرهبانية وتزوج ، ثم خالف قواعد الكنيسة وترجم الكتاب المقدس الى الألمانية • ومات سنة ١٥٤٦ بعد أن ملأ أوربا بالخلاف الدينى وهيأها لحـروب مذهبية دمرت مدنهـا وخربت ريفهـا ولكنهـــا أحيت نفوسها •

وأحيت نفوسها لأنها قررت مبدأ آخـر الى جنب حـــرية الذهن ، هو حـرية الضمير ، و « تقرير المصير للنفس الانسانية » وان خلاص الانسان ليس قضية يحكم عليه فيهـا الكهنة والكنيسة وانما هو مسألة خاصة بين الانسان وربه ، ولا شأن لحــكومة أو فرد أو أى هيئة أخرى أن تتدخل فيهـا •

فانظر اذن فى هذه الحركة البشرية الأولى • فانهـا قــررت استقلال الذهن البشرى وحقه فى أن يقرأ المؤلفين الذين ألفـــوا أو يؤلفون فى غير « الالهيـــات » حتى ولو كانوا كفـارا من الاغريق أو اللاتين • ثم قررت استقلال الضمير وحق الانسان فى أن يناجى ربه دون أن يتوسل لذلك بالكهنة والكنيسة •

ومن هذا الحق الثانى نشأت حـركات أخرى اتصلت بالحقوق السياسية والاقتصادية • بل لقد رأى لوثر نفسه ان حـركة حـرية الضمير أدت الى ثورة الفلاحين على الأمراء • وأصبحت « حـرية الضمير » كلمة مثيدة تقـال فى وجه الملوك لمنع الاضطهاد ، وفكرة تبعث على التفكير الاجتمـــاعى ، بلا خـــوف من العرف الشــائع

والعـادات الفاشية · واذا كان لوثر نفســه قد احتفظ بعفونات ورواسب من القـــرون المظلمة جعلتـه يكره ثورات الفـــلاحين وحملته على الدفاع عن حقـوق الأمراء والنبـلاء ، فقـد أثمرت هذه الفكرة ايضا حـرية السعى الاقتصادى والمزاحمة الحرة بين الأفراد . هذه الحرية التى بلغت قمتها فى عصرنا حتى اسـتحالت من الفائدة الى الضرر وحتى قامت الحكومات الحديثة تحـد منها وتأخذ بالآراء الاشتراكية كى تحـول دون ضررها · ولولا حـرية الضـمير هـذه لما أمكن العلمـاء أن يكتشــفوا ما كشفوا من حقـــائق علميـة ·

★★★

التفسير الاقتصادى للنهضة الأوربية

كان التاريخ يكتب كي يكون معرضا ، تسير فيه مواكب العظماء من الملوك والقواد والساسة والعلماء أو الأدباء ، تروى فيه سيرهم وما اشتبكوا فيه من المعارك الحربية أو المناقشات الفنية ، فلما ظهرت نظرية « التفسير الاقتصادى للتاريخ » أصبح المؤرخون يبحثون العوامل والعلل الاقتصادية لاحدى الثورات أو الحروب كما يبحثون عنها لتعليل أحد المستكشفات أو المخترعات ·

وهذه النظرية تقول بأن العلاقات الاقتصادية بين طبقات الشعب وأفراده هى الأساس الذى ينبنى عليه سائر ما فى الأمة من علاقات اجتماعية أو حقوق سياسية · وأن ما يصدر عن الأمة من فلسفات أو مذاهب أو نزعات أدبية انما يعبر فى الحقيقة عن الحالة الاقتصادية التى فى الأمة · وذلك لأن المركز الاقتصادى للفرد يقرر له المركز الاجتماعى ، وأولئك الحاصلون على السيادة الاقتصادية هم أيضا الحاصلون على السيادة الاجتماعية أو السياسية ، وما عند الأمة من نظم اجتماعية أو سياسية أو ثقافية انما هو فى الحقيقة ثمرة النظام الاقتصادى الأساسى · لأن غاية هذه النظم فى النهاية صيانة الحقوق أو الامتيازات الاقتصادية ·

والقائلون بهذه النظـرية لا ينكرون اعتبـارات آخـرى فى تطور الأمة ولكنهم يضعون هذا الاعتبـار الاقتصادى فى المقـــال الأول • وقد يجد المتأمل خروقا فى هذه النظرية تجعلها لا تستوعب جميع التغييرات الاجتماعية أو الســـياسية أو الثقافية ، ولكنــه لا يتمـالك من الاعتراف بأنها على وجــه العموم صحيحة • وليس المعنى المقصــود من التفســـير الاقتصــادى للتاريخ أن النـــاس لا ينعثون الى العمل والنشاط والسعى الا للفائدة الاقتصادية التى تعود عليهم وانما المقصود أن الحالة الاقتصادية العـــامة فى الأمة تقرر سائر الأحــوال فيهــا • اذ هى بمثابة الشــجرة وهــذه بمثابة الثمرات التى تنبت عليها • ووسائل الانتاج وطرق الارتزاق تعــين الطبقات وتبعث العــواطف •

وفى ضوء هذه النظرية نستطيع أن نقول ان القـــرون المظلمة التى أعقبت سقوط الدولة الرومانية فى أوربا انما كانت نتيجة لغارة الهمج من القبــائل الجرمانية على المدن الرومانية وتخــريبها • وهؤلاء الهمج لم يخرجوا من أقاليمهم الا لأسباب اقتصادية • فلما خربت المدن الرومانية عاد الوسط الأوربى وسطا ريفيا قرويا بعــد أن كان وســطا عالميا مدنيــا • والوســط الريفى يلازمه الانحصار رقى فى الصناعات وتوسع فى التجارة وثقافة تتعلق بالتجـــارة والجمود والتأخر وقلة الثقافة والاستبداد ، فى حين يلازم المدينــة رقى فى الصناعات وتوسع فى التجارة وثقافة تتعلق بالتجــارة والصناعة • ولذلك تفشوا الآراء والانتقادات فى المدينة كما يفشو التسليم والعقــائد فى الريف •

ثم جاء العرب فى القرن السابع فمنعوا أوربا من الاتجار مع آسيا فام تعد الآفاق الفــكرية تنبسط للأوربى لأن وجدانه الكوكبى زال وأخــذ مكانه وجـدان قروى محــــدود يعيش فى الســــكان بالمقايضــــة •

والقرون المظلمة سواء فى الشرق أم فى الغرب ، بل سواء فى الزمن الحاضر أم الأزمنة الماضية ، هى قرون الوسط الريفى كما نفهمه فى مصر • أى هذا الوسط القائم على الزراعة اليدوية• ولسنا نعنى ذلك الوسط الريفى الجديد فى الولايات المتحدة مثلا حيث العمل يجرى بالآلات الضخمة ، فان عقلية المزارع هنا لا تختلف عن عقلية الصانع •

فلما بلغت أوربا سنة ألف أو حواليها بدأت المدن تتكون وتجذب اليها عمال الريف أو عبيد الريف ، فعاد التاجر والصانع الى الظهور وأخذت فنون المدينة تظهر رويدا رويدا بعد أن كانت قد ماتت نحو ٧٠٠ سنة فى الريف • فاذا كان القرن الخامس عشر فاننا نجد المدينة عامرة بالصناعات ، وفى كثير منها كليات ومدارس ، ونرى للتاجر مقاما كبيرا • ونرى للمدينة أثرا فى تركيز الحكم • فان الريف من طبيعته ـ وخاصة اذا كان جبليا ـ أن يوزع الحكم ويعمل للاستقلال الاقطاعى فيعود صاحب الأرض وهو « كونت » أو « دوق » له حكومته المستقلة التى يمكنه أن ينازع بها الملك نفسه • أما المدينة فانها تحصر السكان فى بقعة معينة فلا يمكن الأمراء أن يستقلوا بجزء منها •

وحاجات الوسط الزراعى قليلة لأن كل زارع يمكنه أن يستغنى بقليل جدا من الصناعات البدائية عن شراء الملابس والأحذية والأطعمة ، لأنه يمكنه أن يستخرج كل هذه الاشياء من أرضه • وقد كانت هذه حاله مدة القرون المظلمة ، بل الوسطى ، ن الغزل والنسيج كانا عاملين فى جميع القرى • أما فى المدينة فان التخصص ضرورى • ومن هنا تنشأ الصناعات على الاختراع والاكتشاف والثقافة الفنية • ومتى كبرت المدينة عظم شأن التجارة فيها وعندئذ تعرف البحار ويخرج تجارها لمبادلة

السلع مع الأقطار الأخرى فينشأ من ذلك الاكتشاف الجغرافى ثم الحروب ثم الاستعمار • ثم تتجمع الثروات فينشأ الترف ويبعث الفنون الجميلة والصناعات الأنيقة •

وعلى ذلك اذا أردنا أن نعين الفرق بين القرون الوسطى وبين النهضة أمكننا أن نقول ان النهضة هى انتقال الناس من سكنى الريف ، حيث كان الجمود وحكم النبلاء ، والصبر على العقائد ، الى سكنى المدن حيث التجارة والصناعة وتجمع السكان فى بقعة واحدة • وحيث الرأى فوق العقيدة ، بل حيث الفرصة للاكتشاف والاختراع • وهذه الحركة التى فشت فى مدن أوربا فى القرن الخامس عشر ، فى الدرس العلمى الجديد والتنقيب عن المؤلفات الاغريقية واللاتينية ، انما كان مبعثها ظهور التاجر والصانع فى المدن بعد غيابهما نحو ألف سنة وامتداد أوربا بالملاحة الى القارات الثلاث ثم الأربع الأخرى • فأصبح للأوربيين وجدان بالتاريخ فى الجغرافيا واصبحوا يعيشون على كوكب الأرض بعد أن كانوا ينحجزون فى القرى ولا يعرفون غير التفكير القروى المحدود • بل يمكن أن نفسر الجمود الذى يفشى الشرقيين أو بعضهم الآن بأنهم لا يزالون يعيشون فى وسط زراعى قروى يشجع الانسان على أن يكون أبله ، يحترم جميع التقاليد ويسلم بجميع العقائد ويقنع بعيشه • كما يمكن أن نفسر رقى الغربيين بأن معظمهم يعيشون فى المدن التى يجبرهم مجرد السير فى شوارعها على أن يكونوا اذكياء متنبهين • وهم فى هذا الوسط المدنى يرتأون الرأى وينقضونه ويرون فى التقاليد شبهات وفى الجمود كارثة •

★★★

رجل العلم ورجل الأدب

لا يزال العالم الأوربى من حيث الثقـافة يندفع فى تيـار النهضة التى اضطرمت فى القرن الخامس عشر حتى ما نكاد نجد الآن حركة ثقافية الا ولها بذرة أصيلة فى تلك النهضـة · وما زلنا نجد عادات وتقاليد ونزعات ثقافية ترجـع اليهـا وليس لهـا من أسباب البقاء غير أنها تتصل بالنهضـة · حتى انى لأجـد أديبا عصريا مثل « هـ · ج · ولز » الذى مات فى ١٩٤٧ ، يؤلف آخـر ما يؤلف من الكتب كتـابا ضـد البابا والديانة المسيحية · كأنه لا يزال يحس بأنه فى الصراع القـائم فى القرن الخامس عشر بين الغيبيين والناهضين ·

وقد كان فى النهضة الأوربية موجتـان تعلوان تيـارها : احداهما تنحو نحو التـاريخ والنقـد الدينى وفنـون الاغريق والرومان ـ نعنى بهـا موجة الآداب التى كان يمثلهـا « أرازموس » الهولندى (١٤٦٦ ـ ١٥٣٦) ·

والموجة الثانية كانت تنحو نحـو العلم وكان قوامها التجربة وكراهة التقاليد ، أو قلة الايمـان بفـائدتها ، ثم الجـراءة عـلى الابتـكار وبحث النظـريات العلميـة و « الحقـائق » الموروثة بروح الشك والرغبة فى الاصلاح والاهتداء الى سـبل جديدة للوصـول الى استخدام الطبيعـة · وكان يمثـل هـذه الموجة « دافنتشى »

الايطالى (١٤٥٢ ـ ١٥١٩) و هـ٠ ج ٠ ولز كان فى سباق هــذه النهضــــة ٠

وما زلنا الى الآن نجد هذين الطرازين من رجــال الثقـــافة . وقد تشتد أحيانا بينهما الكراهة فيتبادلان الســباب ٠ وكل منهمـا يتهم الآخر بأنه لا فائدة منــه للعالم ٠ وقل ان تجد من يجمع بــين النزعتين ، أى الأدب والعــلم ٠ وليس ذلك فقـــط لأن المجهــود يتجاوز قدرة الفرد بل أيضا لأن المزاج العــلمى يختلف بل أحيانا يناقض ، المزاج الأدبى ٠ فان الأديب لتعلقـــه بالتـــاريخ والتقاليد والمأثور من الشعر والنثر واحترامه للكتب ، يحب الماضى ويفــكر فيه كثيرا ويميل الى الاجترار الذهنى والبحث عن الحقائق الذاتية٠ أما العـــالم فانه يتشكك فى النظريات والفروض القـــديمة ولا يبالى التــاريخ أو الكتب ٠ وعنـــده ان كثيرا من جد الأدباء انمــا هــو لهــو وسمر ، ثم هـــو لا يبحث عن كنــه الحقائق وانما ينشــد فوائدها كى يستخدمها لمصـــالح الناس ٠

ولو أن مؤرخا شاء أن يشرح النهضــة الأوربية واقتصر على ترجمتى ارازموس ودافنتشى لكــــان له منهما ما يكفى لايضــــاح النزعتين الكبيرتين اللتين غمرتا النهضـــة ولاخـــراج تاريخ مفيد عنها ولتمييز النزعات المتناقضة أو المتساوقة ٠

فقد كان أرازموس يمت الى القرون الوسطى ، كما يمت جميع الأدباء الآن سواء فى الشرق أم فى الغرب ٠ اذ تعــلم فى دير ونشأ راهبــا ثم صــار بعــد ذلك قسـيسا ٠ ويعــرف القارىء أن الثقافة كانت طــوال القــرون الوســطى مقصــــورة على الأديرة ورجـــال الدين ، أى أنها رجعت الى ما كانت عليـــه فى الأمم القـــديمة المصريين والبابليين القــدماء ٠ ولم يكن رجـــال النهضــــة قـد تخلصوا من هــذه العــادات ٠ وتعين أرازموس ســكرتيرا لأحــد

الأساقفة ثم اشتغل بعد ذلك بتحـــرير الكتب القـديمة اللاتينيـــة والاغريقيــة تجهيزا للطبــع • وكان يعـلق عليهــا بالشروح •

ومن الأقوال المألوفة أن ارازموس حضن البيضـــة التى فقسها « لوثر » المصلح الألمانى وزعيم البروتستنتية • وذلك بمــا كان يؤلفه عن الفضائح فى الديورة ، وعن جهل القسوس وتعصبهم ، وعن سخافات الرهبان ونحــو ذلك ، حتى اذا جــاء لوثر وجـــد الحنق عاما فى قلوب الجماهير فاستطاع أن يعمم بينهم دعـــوته على البابا والكهـــان • وكل من أرازموس ولوثر هو فى حقيقته داعيــة الى الديمقراطية الدينية •

فالعـــالم الـــذى عاش فيــه ارازموس هـــو عـــالم الكتب القـديمة ، والموضــوع الـذى اختيـاره للتأليف هـــو الاصـــلاح الدينى وتقـويم الأخـلاق فى أسـلوب يلهى ويسـلى • ولا يزال لأرازموس ســلالة تنتمى اليــه بصلة الثقــافة وتعيش على طريقته وتهتم لهمـــومه •

أما الطراز الثـانى فهــو طراز دافنتشى الذى لم يؤلف كتابا ، ولعله أيضا لم يقرأ كتــابا قديما ، ولكنه كان موســـوعى الثقــافة فيما عدا ذلك ، يرسم وينحت ويبحث الرياضــيات ويختــرع • فقد اخترع طواحين تدور رحاها بتيــار الماء ، واخترع دبابات حــربية ومدافع ، وبحث عن البــارود وكيف يؤلف ، وحــاول أن يستعمل قوة البخــار للسـفن ، وفكر فى خــرق نفق تحت الجبــال • وأوشك أن يهتدى الى نظــام الدورة الدموية فى الانســـان • واخترع طيارة وجربها بالفعــل ثم كف عن هـــذه المحــاولة الخطرة بعـــد أن أصيب منها أحــد تلاميذه • واستطاع أن يقســم المملكة الحيــوانية الى فقاريات وغير فقــاريات ، وبحث واهتـــدى قبل «كوبرنيكوس» الى حــركة الأرض •

هذان هما طرازان بارزان لرجـال النهضـة : أحـدهما رجل الأدب والكتب والتـاريخ والسمر والقصـــص والوعظ والنظر الى الماضى ، والآخر رجل العلم الذى لا يقرأ الا قليلا ولا ينظر الا الى المستقبل وهـو دائب فى الاختراع · والعالم بالطبـع فى حاجة الى الاثنين وان كان أبنـاء المستقبل سيبالون رجل العلم أكثر جدا مما يبـالون رجل الآداب ·

★★★

من موضوعية بيكون الى مادية هوبز

اذا ذكرت النهضة الأوربية مثل للذهن رجلان ، كلاهما يعرف باسم بيكون وكلاهما انجليزى : الأول هو « روجر بيكون » الذى ولد فى ١٢١٤ وهلك فى ١٢٩٤ · والثانى هو « فرانسس بيكون » الذى ولد فى ١٥٦١ وهلك فى ١٦٢٦ · ومع الزمن الطويل الذى يفصل بين الاثنين نجد تشابها فى النزعة أو اشتراكا فى الطريقة يوهمنا الاتصال الذهنى بينهما · وقد كان هذا الاتصال توهما فقط لا يزيد عن الرجم والظن · ولكن اتضح من الأبحاث التاريخية الحديثة أن بيكون الثانى قد عرف سميه الأول وقرأ مؤلفاته على أستاذه « جلبرت » · واولئك الذين يؤمنون بتسلسل الثقافة يجدون فى هذا الاتصال دليلا جديدا يؤيد نظريتهم فى هذا التسلسل ، فانه قلما يحدث أن يشترك اثنان فى اكتشاف أو اختراع · فاذا وجدنا مثل هذا الاشتراك وجب علينا أن ننظر اليه نظرة الريبة والشبهة ·

ونحن عندما نتكلم عن النهضة الأوروبية نقصد الى تلك الثورة التى أصابت الذهن الأوربى فوقف فجأة عن متابعة السير فى ثقافته وأخذ يتساءل هذا السؤال المؤلم : هل للطريقة التى اتبعها فى الدرس حسنة أم سيئة ؟

هذا هو الموضوع الذى شغل أذهان رجال النهضة من الأدباء والعلماء · فان الشك فشى على أذهانهم فشرعوا ينتقصون من

قيمة ما يدرسونه من المعارف ويصرحون لأنفسـهم بأن طريقة جمع المعـارف التى ألفوها منذ الصغر هى طـريقة مخطئة وأنه يجب ابتكار طريقة جـديدة ٠

وقبـل أن نبسـط الـكلام فى الطريقة الجـديدة ، التى هى أسـاس النهضـة ، بل أسـاس الثقافة الحـديثة ، يجب أن نشرح فى كلمـة مختصرة تلك الطريقة القـديمة التى ثار عليها رجـال النهضـة ٠

فقـد كانت غاية العـلوم والمعـارف خـدمة الدين والدين فقط ٠ وما عـدا ذلك فهـو عبث أو كفـر ٠ واذن اتجهت النهضـة فى ناحية من نواحيها الى الاستقلال من الدين ، حتى علم السياسة ظهـر له من يدافع عنه فى شخص « ميكافلى » الذى كان يطلب لهـذا العـلم استقلالا كى يبحث فى نزاهة فلا يخضـع الباحث فيـه للدين أو الأخـلاق ٠ واذن يمـكن أن نقـول ان أول واجب قام به الأدباء والعلمـاء فى بداية النهضـة كان الاستقلال من سلطان الدين ٠

وناحية أخرى اتجهت اليهـا النهضـة هى الاقلاع عن الرجم الفلسفى والمنطق الذهنى الى التجـربة ٠ فقـد كان المألوف عنـد العـالم من علماء القرون الوسطى أن يبحث الموضـوع الذى يتناول درسه بحثا فلسفيا وكأنه يضارب بذهنه مضاربة ٠ فهـو يرجـم بالفلسفة ويحـاول أن يصل النتـائج بالأسـباب ٠ ولكن رجـال النهضـة رأوا خطأ هذه الطريقة فقـاموا يدعون الى التجـربة ٠ فيجب ألا نؤمن بشىء حتى نجربه فى ظروف مختلفة وعلى أيدى اناس كثيرين ٠ ومن هنا يمكن أن نقول ان النهضـة كانت الى حد ما ، وفى تعبيرها الحديث ، ثورة العـلم على الفلسفة ٠ أو ثورة التجربة على التفكير المنطقى الفلسفى ٠

ثم نجد الى هاتين النزعتين حركة جديدة اكتسبها الأوربيون من عرب الأندلس هي الرغبة في تحويل المعادن والبحث عن اكسير الحياة • فقد اشتغل العرب بنوع غريب من المعارف مزجوا فيه الغيبيات بالكيمياء ، فصاروا يتكلمون عن الحياة الأبدية في الوقت الذي يتكلمون فيه عن تحويل الرصاص الى ذهب • والكيمياء الآن أبعد العلوم من الغيبيات ولكن بذرتها الأصلية نبتت في تلك التربة الأندلسية العربية • وقد نستطيع أن نرجع بهذه البذرة الى المصريين القدماء الذين أكبروا من شأن الذهب ونسبوا اليه صفات الخلود • وكلمة كيمياء معناها مصر أو العلم المصري • وهو التحويل للمعادن الذي افشى روح التجربة بين العلماء •

وبعد هذه المقدمة المختصرة يجب أن ننظر الآن في حياة هذين العالمين الانجليزيين فقد كان روجر بيكون راهبا انجليزيا ، مثل معظم العلماء في وقته ، اذ كان الدير موئل الثقافة • ومما يدل القارئ على روح العصر أن بيكون هذا كان يبرر درس الرياضيات بأنها تساعد على فهم الدين • وهو من هذه الناحية يعد من رجال القرون الوسطى وليس من رجال النهضة ، اذ كان يظن أن الغاية من المعارف الانسانية هي خدمة الدين • وليس هذا غريبا منه • فقد مات في ١٢٩٤ والتاريخ الرسمي لبداية النهضة هو سنة ١٤٥٣

أما الناحية التي خدم بها النهضة فتنحصر في دعوته الى جمع المعارف بملاحظة الطبيعة دون جمعها من الكتب • ثم كان ينتقص الذهن فيقول اننا اذا فكرنا في موضوع فيجب الا نأتمن ذهننا • ولا نثق بالنتيجة التي وصلنا اليها الا بعد أن نمتحن هذه النتيجة بالتجربة ، لنرى هل هناك افتراق بين قياس الذهن وقياس اليد ، أو بين التفكير المجرد والتجربة العلمية •

ثم كان يدعو الأوربيين الى درس اللغة العربية · وقد كان علماء العرب فى ذلك الوقت قد اتجهوا ، كما قلنا ، نحو التجربة ، عندما تكلموا عن الكيمياء التى مزجوها بالغيبيات · وقد اتهم بالهرطقة لهذه الدعوة كما كان يتهم المجددون فى مصر بالكفر عندما كانوا يدعون الى الطريقة الاوربية فى التثقيف ·

وقد حبس روجر بيكون ١٤ سنة وجمد البابا مؤلفاته · وفى هذه المؤلفات نرى كلاما غريبا من هذا الخارج من ظلمات القرون الوسطى عن سفن تجرى فى الماء بقوة البخار وعن آلات تكبر وتصغر مثل التلسكون والمكروسكوب · وعن أشياء أخرى اتهم من أجلها بالسحر ·

ويجب أن نذكر ان « كولمبوس » الذى اكتشف أمريكا سنة ١٤٩٢ قد قرأ جملة مؤلفات كانت هى التى أوحت اليه هذا الاكتشاف · ووجد فيما قرأه كولمبوس مقتبسات من هذا المفكر الانجليزى الذى أومأ الى النهضة وان لم يبلغها ، وهذه الكلمات التالية التى نقتبسها من أقواله تدل على الروح الجديد الذى حاول أن يخلقه فى أوربا حوالى منتصف القرن الثالث عشر :

« انى أعتقد أن البشر سوف يعتنقون المبدأ الذى أرصدت له حياتى ، مبدأ البحث كما لو كان ، أى البحث ، من البدهيات ، لأن البحث هو مذهب الأحرار ·· اذ ينطوى على اتاحة الفرصة للتجربة وعلى حقنا فى أن نخطىء ونتشجع ونعود الى التجربة · ونحن العلميين فى الروح البشرى سنجرب ونجرب ودائما نجرب· وعلينا فى القرون القادمة مع المحاولات والأخطاء ، ومع آلام البحث ومتاعبه أن نجرب فى القوانين والعادات وفى نظم النقود ونظم الحكومات ، حتى نرسم الطريق الوحيد الى أبعادنا البشرية ، كما امتدت الكواكب الى أفلاكها ·· ثم

نسير معا فى وفاق بحافز انشائى عظيم نحو الاتحاد والنظام والقصد » .

***

لما ظهر بيكون الثانى كان الزمن قد تغير وتطور كما نرى من الحرفة التى احترفها ، اذ كان محاميا وسياسيا بينما بيكون الأول كان راهبا . وهكذا انتقل العلم من الدير الى المدرسة والكتب . ومعنى هذا الانتقال ان الدين كان فى المقدمة يغمر كل شىء فى القرن الثالث عشر ولكنه تراجع فى القرن السادس عشر وأصبحت هناك حرف جديدة غير الدين يحترفها العلماء والخاصة . وليس بيكون الثانى سوى بيكون الأول قد بولغ فى نزعته الأولى ، وهى الاعتماد على التجربة ، وقد وجد فى عصره قبولا لم يجده سميه السابق .

ألف بيكون الثانى فى ١٦٠٥ كتابين فى الطرق التى يمكن أن تتقدم بها المعارف البشرية ، دعا فيهما الى ضرورة التجربة باعتبارها الأساس لهذه المعارف والى الاعتماد على الطبيعة دون الكتب . واليك كلمات منه تدلك على الغاية التى وضعها نصب عينيه . فهو يقول مثلا :

« الانسان خادم الطبيعة ومفسرها » .

ثم يقول :

« هناك عدة أدلة تدل على أنه لا يزال فى جوف الطبيعة أسرار كثيرة لها قيمتها العظمى وليس لها شبه أو قرابة مما نعرفة نحن الآن . وهى بعيدة عن خيالنا لم نقف على كنهها بعد » .

ثم يقول فى انتقـــاد الطب :

« ولنا هنا أن نلاحظ كيف ان الأطباء قد كفوا عن اســتعمال تلك الطريقة المفيدة التى كان أبقراط يتبعها حين كان يدون العلاجات الخاصة بجـد ودقــة حيث كــان يصف طبيعــة المرض وظروفه » . « ... وهــــذا التـــدوين للتقــريرات الطبيــة نجــــده الآن ناقصا وخاصة من حيث ايجـــاد مجمــوعة منظمة قــد هضــمها البحث والتمييز » .

فمن هــذه الابحاث يتضح للقارىء أنه يريد الاعتمــاد على التجربة ، ثم جمع الظــواهر وتدوينها لاستخراج النتائج . وقد اقترح ايجــاد كلية اطلق عليها اسم « بيت سليمان » تجمع فيهــا طوائف العلمــاء للدرس والتجــارب . وبهــذه الكلية آلات وأجهزة وأفران لهذه الغاية . ويمنح المشتغلون فيها اجازات طويلة مـــع النفقــات الضرورية لكى يرحلوا الى الامم الاخرى ويجمعــوا منها بالمشاهدة ما يزيد معارفهم .

ثم نجد فى جميع مؤلفاته أقوالا تشــبه ما كان يقــوله روجــر بيكون لدعــوته الى التجربة المباشرة بدلا من القيـــاس المنطقى ، وأخيرا نرى فى ختــام حيــاته رمزا للغــاية التى نشــدها اذ أنه أصيب بالانفلونزا لأنه وقف يحشو طائرا ميتا بالثلج كى يرى أثر البرودة فى منع العفونة .

وليس كل من بيكون الأول ولا بيكون الثــانى عالما ، بالمعنى الذى نفهمه الآن من هذه الكلمة ، ولكنهما كانا يدعوان الى الطريقة العمليــة وهى التجـــربة . فكلاهما يدعــو الى المذهب العــلمى ولكن لم يكن أحــدهما « عمليــا » أى أنه لــم يتخصص فى تجارب عمليــة .

وميزة فرنسيس بيكون انه نقـــل أوربا من التفكير الفلسفى الاغريقى الى التفكير العلمى التجريبى · والفرق بين الاثنين عظيم جدا · لأن الفيلسوف الاغريقى كان يضع المذهب ثم يجمع الحقائق التى توافقه ، أى توافق هذا المذهب · كأنه كان يعتقد ان فى الكون أصولا ومبادىء يجب التسليم بها قبل دراسة الأشياء · ولكن التفكير العلمى يعتمد أولا ، وفقط ، على التجربة ، أو ما يقابل التجربة من الاختبارات ثم يستنتج من التجارب مبادىء وأصولا · وقد تبلور هذا الأسلوب فى فلسفة هوبز (١٥٨٨ ـ ١٦٧٩) المادية حتى قصر موضوع الفلسفة على المادة وحركتها ·

وبكلمة اخرى نقول ان الاغريق اعتمدوا على التفكير ولم يعتمدوا على المشاهدة · ومن هنا عنايتهم الكبيرة بالمنطق لأنه حركة ذهنية محضة · وكتاب بيكون « نوفوم أورجانوم » أو « الوسيلة الجديدة » هو دعوة الى التجربة واننا لن نفهم أكثر مما نعاين · ولكن حتى بعد المعاينة يجب ألا نثب الى الاستنتاج ، اذ يجب ان نعيد المعاينة والتجربة قبل ان نصل الى الاستنتاج ، اما اجترار المنطق ونحن بعيدون عن المشاهدة والتجربة فعقم وضرر ·

ومن أحسن ما التفت اليه بيكون فى كتابه هذا هو التنبيه الى الخطأ السكلوجى فى التفكير الشائع فى عصره وقبله · وهو نقل المنطق البشرى بل المقاييس الاجتماعية الى الطبيعة وهذا هو ما وقع فيه الاغريق · حتى انهم ظنوا ان الكون منتظم فى دوائر لأن الدائرة هى الشكل الكامل · وما دام الكون كاملا فيجب أن يسير فى دوائر ·

وكذلك التفت الى ضرورة ايجاد لغة خاصـــة للتفكير بحيث لا تتحمل كلماتها التباســات اللغة الدارجة بين العـــامة أو بين الكتاب · وهـــذا هو ما انتهى اليه العلميون فى أوربا ، اذ انهم يتخذون كلمات خاصة للعلوم يتعارفون عليهـا مهما اختلفت لغــات الكلام بينهم · بل هـــذا ما تحتاج اليه فى مصر حيث نجد مشقة

كبيرة فى استقطار معنى علمى من كلمات مشتبهات كقولنا الشعور بمعنى الاحساس والكبت بمعنى الكظم الخ ٠

وفى كتابه هـذا نصـح بيكون أيضـا ان نتجرد من اهوائنا واستغراضاتنا ٠

وأخيرا نصح بأن تتخلص الفلسفة من الدين حتى تنطلق حرة بلا عائق من العقائد ٠

★★★

ولم يكن بيكون مـع ذلك مكتشفا أو مخترعا ٠ ولم يكن له معمل للاختبـار والتجربة ٠ لأن مهمته لم تكن مهمة الاكتشـاف أو الاختراع ، وانما كانت مهمة وضع الخطط ورسم المناهج للوصول الى الاكتشاف والاختراع ٠

وذلك بأن لا نبحث العلم من حيث انه دراسة الكرسى والمكتبة والتأمل والفلسفة ٠ وانما ندرس العلم بحيث نقصد منه الى نتيجة عملية فى الصناعة ، لأننا بالصناعة نزيد الثراء والرفاهية للبشر . ولذلك يقول : « ان الحقائق تكشف وتعرف بما تؤدى اليه من عمل وليس لأنها تتفق مع المنطق ٠ وقولنا هذا يعنى فى النهاية ان تحسين حظ الانسان وتحسين عقل الانسان كلاهما شىء واحد » ٠

ومعنى هذا ان معارفنا لا قيمة لها الا من حيث اننا ننتفع بها فى الرقى البشرى ٠ ولذلك حمل على فلاسفة الاغريق لأنهم استخدموا عقولهم للتفكير المجرد وليس للاختراع والاكتشاف ٠ فهو يقول عن « ارسطوطاليس » انه « سوفسطائى متعوس ٠ وكتابه فى المنطق هو كتاب فى الجنون ٠ وغيبياته هى نسيج العنكبوت الذى يبنيه على أساس راه » ٠

ويقول عن « أفلاطون » انه « مفكر غيبى أبله زائف » ٠

ولسنا نجد هنا أكثر من النزعة والاتجاه اللذين يلخصان فى قولنا : « دعونا من القدماء ٠ دعونا من التفكير فى المكتبـة بين الكتب ٠ واخرجوا الى الورشـة والمصنع ، والى الطبيعة . جربوا واخترعوا ٠ اسـتخدموا ما تعرفونه فى زيادة الخير والرفاهية للبشر » ٠

داعية الشــك الفلسفى

نستطيع ان نقول ان « فرنسيس بيكون » الانجليزى قد وضع المنهج للتفكير العلمى بالاكبار من شأن التجربة · أما « ديكارت » الفرنسى (١٥٩٦ ــ ١٦٥٠) فقــد وضــع المنهج للتفكير الفلسفى بالاكبار من شأن الشك ، حتى لا نسلم بشىء الا بعد ان نعالجه كما لو كان مسألة أو نظرية من نظريات « اقليدس » ·

وقواعد التفكير السليم عند ديكارت هى :

١ ــ لا اعترف بصحة شىء ما لم أجــــده كذلك بلا تعجل أو استغراض ·

٢ ــ تجزئة الصعوبة الى أجزاء وحل كل منها على حدة ·

٣ ــ ثم التأمل بالترتيب ابتداء من الأشياء البسيطة التى يسهل فهمها ثم الانتقال خطوة بعد خطوة الى الأشياء الصعبة ·

٤ ــ الاحاطة والتعميم بحيث أثق انى لم أترك شيئا ·

وهــــذه القواعد الأربع تشبه بل تطابق التدليل فى نظريات أقليدس · ولكن هنا الفرق الأساسى بين بيكون التجريبى وبين ديكارت التفكيرى · لأن البرهان عند ديكارت عقلى مهما قلنا ان منهجه يحوط هذه البراهين بما يمنع الخطأ · ولكن البرهان عند بيكون تجريبى ،

يجرى باليد كما يجرى بالعقل · أى يجب أن نجرب أكثر مما نفكر · وهذا هو منهج المدرسة الانجليزية على وجه عام · اذ هى مدرسة العلم وليس مدرسة الفلسفة · فقد حدث ان « جينر » الطبيب الذى اهتدى الى لقاح الجدرى أرســـل الى « هنتر » خطابا يقول فيه « أنا أرتأى ان ··· » فرد عليه هنتر بقوله « لا ترتأى ولكن جرب » ·

منطق ديكارت يقول « أقعد على كرسيك ، وتأمل ، وفكر بعقلك ، واحترس من الخطأ بالقواعد الأربع التى ذكرت » ·

ولكن منطق بيكون يقول : « انهض ، وشاهد بعينيك ، وافحص بسائر حواسك ، ثم جرب بيديك » ·

وقد انتفعت الأبحاث التجريبية العلمية من منطق ديكارت من حيث النفور من التسليم بصحة الأقوال أو العقائد أو الفروض التى لم يفحص عنها · ولكن حضارة أوربا القائمة هى ثمـــرة المنهج البيكونى ، أى التجربة أو التفكير بالعقل واليد معا ·

وعندما نتعمق مؤلفات ديكارت تتأكد لنا صحة القول بأنه ينزع الى الفلسفة وليس الى العلم · فانه يقول مثلا ان هناك ثلاثة أنواع من التفكير · هى :

١ ــ التفكير الأصلى أو اللدنى مثل بديهيات الرياضة : ٦ أكبر من ٥ ·

٢ ــ التفكير الاستنتاجى من الحواس · وقد شك هو فى قيمة هذا التفكير · ولكنه عاد فقال ان هذا التفكير يجب ان يكون سليما · فاذا قلت مثلا ان هذا المنزل موجود مع انه غير موجود ففى هذه الحال يكون الله الذى خلق لى الحواس التى أعاين بها هذا المنزل قد غشنى · وهذا غير معقول ·

٣ ــ التفكير الكاذب أو الخرافي · كالايمان بالجن الخ ·

والحقيقة الأولى عند ديكارت تنحصر فى كلماته هذه : أنا أفكر · ولذلك أنا كائن ·

وكلمة الشك عند ديكارت تكاد تكون بمثابة الامتحان العلمي · ولذلك يضع شروط هذا الشك الواقية من الخطأ · أى أنه شك منهجي أو شك منظم ·

وفى تفكير ديكارت كثير من الغيبيات ، تراث القرون الوسطى ، التى حاول هو نفسه بمنهجه ان يصفيها أو يكسبها شيئا من المنطق · اعتبر مثلا قوله ان الكائنات ثلاثة هى :

١ ــ أرواح مخلوقة مثل نفس الانسان التى تفكر · وهى متصلة اتصالا غير وثيق بالأجسام ·

٢ ــ روح غير مخلوق هو الله وهو عنده بالطبع رب المسيحية ·

٣ ــ أجسام مخلوقة مادية لها خاصة التحيز مكانا وزمانا وهى خارجة عن تفكيرنا مستقلة منه · وهذا التقسيم ، بل هذا الادمان على « مخلوق » و « غير مخلوق » ثم « روح » و « مادة » ، هو بعض تفكير الرهبان فى الدير أيام القرون الوسطى · وقد وجد ديكارت نفسه فى مأزق عندما حاول ان يفهم كيف يحرك الجسم (= مادة) النفس (= روح) ···

وصعوبات ديكارت هى صعوبات سيكلوجية ، لأن محاولاته فلسفية عقيمة ، ولذلك لم يستطع تفسير المعرفة بعد ان ربك نفسه بالفصل بين المادة والروح ·

وعندما نتعمق مؤلفات ديكارت تتأكد لنا صحة القول بأنه ينزع الى الفلسفة وليس الى العلم ·

وكى نزيد الوضوح فى الفـــرق بين منهج ديكارت التفكيرى

ومنهج بيكون التجريبى نضرب مثلا بالأسلوب الذى اتبعه فى اثبات الله :

١ ـ فان ديكارت يقول : ان الله كائن كامل أبدى غير محدود · وهو الذى خلقنى · وأنا محدود · ولذلك لا أستطيع ان أخترع كائنا غير محدود زمانا ومكانا ·

٢ ـ اذا كنت أعرف شيئا أكمل منى فهذه المعرفة قد جاءتنى من الخارج · ولست أنا أصلها · جاءتنى من كائن كامل هو الله ·

٣ ـ انه يمكن بالاعتماد على الصفاء والوضوح ان نجد الله ·

فهنا نجد ان منهج ديكارت هو منهج المفكر القاعد على الكرسى يعالج المشكلة كما لو كانت سيكلوجية فقط خاصة به · ولكن منهج بيكون التجريبى فى هذه المشكلة يطالبنا ببحث الأديان جميعها كما عرفها الانسان · والفكرة الخاصة بالله عند جميع الأمم القديمة والحديثة · ثم البحث عن حلقات التطور فى سلسلة العقائد الى ان نصل الى الايمان العصرى · أى اننا نعتمد على المشاهدة والاختبار اللذين يقومان هنا مقام التجربة باليد بدلا من ان نعتمد على التفكير المجرد ونحن قعود على كراسينا ·

وقد أوذى التفكير الأوربى بالفصل الذى أقامه ديكارت بين العقل والمادة ، أو الروح والجسم · ولكن ديكارت وهو يحاول الوصول الى اليقين عن سبيل الشك المنظم قد زاد الشكوك وحطم الثقافة التقليدية ، أى ثقافة القرون الوسطى · وقد احتاجت أوربا الى سبينوزا (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧) كى تحقق اتزانا جديدا يجعل الروح ، أى العقل والنفس ، خاصة من خواص المادة والجسم · فقد ناقض سبينوزا ديكارت ووحدت فلسفته بين المادة والعقل · ولكنه اتفق مع ديكارت ان الفلسفة لا تكون صحيحة الا اذا استطعنا التعبير عن حقائقها بالرياضيات ···

أثر الأدب العربى فى الآداب الأوربية

من الحقائق المسلم بها ، أن النزعة العلمية التى شاعت فى أوربا فى عصر النهضة ، ترجع أصولها الى التجارب الكيميائية التى كان يجريها العرب لتحويل المعادن الخسيسة الى ذهب ، اذ أن تلك التجارب كانت بمثابة البذرة أو الخميرة « للمنهج العلمى » الحديث ...

ولذلك يرى الأوربيون أن للعرب فضلا كبيرا على العلم الحديث . فهل نستطيع أن ننسب لهم فضلا كذلك على الأدب الغربى ؟ الرأى السائد فى اوربا أن الأدب العربى بعيد كل البعد عن الأدب الغربى . وقد لا يخطر ببال واحد من ألف من قراء الأدب الأوربى أن لهذا الادب علاقة بالأدب العربى . فقد استقر فى الاذهان ، أن الأدب الغربى ترجع أصوله الى الأدبين اللاتينى والاغريقى . وقليل من المستشرقين والباحثين يرى فى الأدب العربى أصلا من أصول الآداب الأوربية الحديثة . ولعل أبرزهم جميعا المستشرق « جيب » أستاذ اللغة العربية بجامعة لندن الذى نلخص له هذه السطور من كتابه « تراث الاسلام » .

« فى آخر القرن الحادى عشر ظهر فجأة طراز جديد من الشعر الغزلى فى جنوب فرنسا . كان طرازا جديدا فى موضوعه وفى أسلوبه ومعانيه . ولم يكن لهذا النوع من الشعر أساس فى الأدب

الفرنسى القديم : وهو يشبه الشعر الاندلسى شبها قويا جدا · اذ هو ضرب من الموشحات والازجال الاندلسية الغنائيـة التى تدور موضوعاتها على الغزل والحب العذرى ·

« أليس من المعقول اذن ان نرد هذا الضرب من الشعر الفرنسى الجديد ، الى الشعر العربى الاندلسى ، وخاصة اذا علمنا ان نظرية « الحب العذرى » التى يدور عليها هذا الشعر الفرنسى الجنوبى ، ليس لها أصل فى الأدبين اللاتينى والاغريقى ؟ » ·

لقد دلل المستر جيب على الرأى فى الكتاب الذى أشرنا اليه تدليلا قويا لا يدع مجالا لشك فى صحته ·

* * *

ليس الأمر مقصورا على الشعر الفرنسى · ولكن الشعر الايطالى أيضا تأثر تأثرا قويا بالشعر العربى فى صقلية · وخاصة فى عهد « فريدريك الثانى » الألمانى ·

وقد يشك فى ان الشعر الأوربى قد تأثر قليلا أو كثيرا بالشعر العربى · ولكن الأمر الذى لا شك فيه هو ان نثر القرون الوسطى فى أوربا يرجع فى كثير من أصوله الى النثر العربى · فقد كان الأدب التقليدى فى القرون الوسطى أدبا صارما جامدا ، يخاطب الخاصة ولا ينزل لافهام العامة · ومن هنا كانت الحاجة العـامة الى ذلك الضرب من الأدب الخيالى الذى يعنى باشباع الحواس أكثر مما يعنى بالمنطق والعقـل · فلما نقلت الى أوربا بعض « الحكايات » ذات المغزى ، وبعض القصص الخرافية كقصة السندباد البحرى وما اليها ، وجد فيها الشعب حاجته المنشودة وأقبل عليها اقبالا شديدا ، فأصبحت بمثابة الخميرة للأدب « الخيالى » الجديد الذى أخذ ينازع الأدب التقليدى القديم مكانه · ومن ثم ذاعت القصص الخيالية الرومانتية

ذيوعا عظيما · ولو فحصنا عن هذه القصص ، لوجدنا ان كثيرا منها يرجع الى أصل عربى بحت · وهناك قصة فرنسية يسمى بطلها « القاسم » وهو اسم عربى لا شك فيه ·

يتضح من هذا ان التيارات الشعبية فى الأدب الأوربى فى القرون الوسطى كانت أقرب الى روح الأدب الشرقى منها إلى الأدبين اللاتينى والاغريقى اللذين كانا بطبيعتهما أميل الى الارستقراطية · ذلك ان الأدب الشرقى فى جملته ينزع الى الخيال والألوان الزاهية الجذابة · فكانت أوربا كلما احتكت بالشرق استلهمت روحه ، وتأثرت بأدبه أشد تأثر · فتأصل الأدب الخيالى الجديد فى أوربا وترعرع حتى كاد يزحزح الأدب التقليدى من مكانه ·

حدث هذا فى القرون الوسطى ، فلما بدأت النهضة العلمية ، نزعت أوربا الى درس الحضارة الاغريقية · فأهملت الشرق ، وأصبحت مقاييس الأدب الاغريقى القديم هى السائدة فى أوربا فى عصر النهضة · ومن ثم تغلبت النزعة التقليدية القديمة فى الأدب على النزعة الخيالية الجديدة بعض الزمن ، غير ان النزعة الخيالية الجديدة ــ وهى نزعة شعبية خالصة ــ لم تخمد تماما · ولكنها كانت تحاول الظهور من حين الى آخر · وهذه القصة الرومانية الفرنسية ، والفولكلور الألمانية ، والدرامة الانجليزية ، التى فشت فى القرن السابع عشر ، كانت من آثار النزعة الخيالية التى بدأت فى القرون الوسطى والتى حاولت النهضة العلمية ان تقتلها فلم تفلح · ثم كان القرن الثامن عشر ، فتم النصر للأدب الخيالى · وقد كانت قصص ألف ليلة ــ التى ترجمت سنة ١٧٠٤ ــ أقوى عامل على هذا النصر · فقد اقبلت الجماهير على قراءتها فى شعف شديد وراح الكتاب يقلدونها فى قصصهم ·

ويرجع نجاح كتاب ألف ليلة الى حالة الأدب الانجليزى والأدب

الفرنسى فى القرن الثامن عشر · فان انتشار القراءة قد انشأ جمهورا جديدا من القراء لم يكن الكتاب يحسبون له حسابا من قبل · وهذا الجمهور الجديد كانت له مطالب وحاجات جديدة فأخذ الكتاب يحاولون ارضاءه واشباع حاجاته · ولكنهم كانوا فى حيرة شديدة ، يتحسسون طريقهم الى معرفة حاجات الجمهور فلا يكادون يصلون اليها · فلما ظهرت قصص ألف ليلة ، ورأى الكتاب اقبال الجمهور الغربى عليها ذلك الاقبال الشديد ، تنبهوا لهذه الظاهرة الجديدة وأخذوا يدرسونها لعلهم يقفون على السر فى شغف الجمهور الأوربى بذلك الأثر الشرقى الطارىء · فتبين لهم بعد طـول التمحيص أن قصص ألف ليلة وليلة ، وان تنقصها مقومات العمل الفنى الكامل ، الا انها تنفرد بخاصة من أهم الخواص التى تحبب الجماهير فى القصص ، هى روح المجازفة والاقتحام · فعمل الكتاب على ادخال هذا العنصر الجديد فى قصصهم · ومن هنا كانت قصة روبنسن كروزو ، وأسفار جوليفر ، وما اليها من القصص التى ما كانت تظهر لولا قصص ألف ليلة ·

اما فى القرن التاسع عشر فقد تأثر الأدب الألمانى الى حد كبير بالآداب العربية والفارسية والهندية · وكان « جوته » يستلهم روح الشرق فى كثير من قصصه التى مزجها بالخيال الشرقى · و «هينى» الذى لم يسلم الأدب الشرقى من سخريته اللاذعة ، لم تخل قصائده الغنائية من روح الشرق ·

وقد كان « شوبنهور » يتوقع اشتداد النزعة نحو الأدب الشرقى، وامتدادها من ألمانيا الى فرنسا وانجلترا · ولكن حدث ما لم يكن فى حسـبانه · فقد وقفت الآداب الفرنسية والانجليزية فى وجه تلك الحركة ، فقضت عليها · ذلك ان العقل الغربى تحـول فجأة عن الشرق · فقد انصرف عنه الى فلاسفته الجدد ، وما ظهر وقتئذ من أفكار سياسية جديدة ، ومخترعات جديدة ، وتطور صناعى سريع ،

فلم يكن فى حالة تسمح له بالالتفات نحو الشرق فضلا عن الانكباب على دراسته ٠

وقد كان « جوته » يحلم بجعل الأدب الألمانى أدبا انسـانيا عالميا ، فتحطم هذا الحلم الجميل بظهور الحركات القومية واشتداد النعرة الوطنية ٠ ومع ذلك لا يمكننا تجاهل مكان الأدب الشرقى من الآداب الغربية فى جميع العصور ٠

وقد يظهر لنا لأول وهلة أنه مكان ضئيل ٠ ولكننا اذا لاحظنا أن الأدب الشرقى لم يكن الا بمثابة الخميرة للنزعات الأدبية الجديدة فى أوربا ، أدركنا مبلغ ما كان له من أثر فى تكييف الأدب الغربى وتوجيهه ٠ ويكفى أن نقول ان الشرق كان كلما اتصل بالغرب عمل على تحرير الخيال الغربى من القيود ، وتخليصه من كابوس الأدب التقليدى القديم ٠

فأثر الأدب الغربى فى الغرب ليس أثرا عاديا ملموسا يمكن ادراكه فى سهولة ويسر ، وانما هو أثر معنوى ــ ان صح هــذا التعبير ــ لأنه فى حقيقة الأمر لم ينقل الى الغرب نماذج أو أساليب أدبية معينة ، وانما نقل اليه روح الشرق ٠ فكان أثره فى بواعث الأدب وغاياته أكثر مما كان فى أساليبه وأشكاله الظاهرة ٠ ثم يجب أن نذكر ان الغرب لم يأخذ عن الشرق نزعات أدبية جديدة لم يكن له بها عهد من قبل ، فان البذور كانت موجودة فى الغرب ، ولكنها كانت فى حاجة الى حافز يحفزها حتى تنمو وتترعرع ، فكان الروح الخيالى الشرقى هو الحافز المنشود ٠ ومن هنا يصعب على الباحث أن يميز بين عناصر الأدب العربى التى طرأت على الأدب الغربى فى مختلف العصور ، لان تلك العناصر قد اندمجت فى الآداب الغربية اندماجا تاما وطغت عليها الألوان المحلية فغمرتها ٠

* * *

العــرب أصــل النزعة العلمية

أقدم الجامعات فى أوربا هى جامعات طليطلة وقرطبة واشبيلية، وهى التى ازدهرت فى أيام العرب · ثم كان أقدم الجامعات التى ظهرت فى أوربا المسيحية بعــدها جامعات دينية أنشئت فى باريس واكسفورد · وكانت المدارس فى ســالرنو وبولونيا ومونبيلييه فى ايطالية وفرنسا ثغورا للثقافة العربية ·

وكان من ميزات الثقافة العربية أنها عنيت بعلوم الاغريق دون آدابها ، فنقلها العرب وزادوا عليها ونقحوا فيها · فقد أخذوا الكيمياء المصرية فجعلوها علما لم يختلط بالصوفية الا فى أواخر تاريخهم · أما الطب والفلك والبصريات والميكانيات فقد برعوا فيها · وأخذوا الجبر الهندى المزوج بالبلاغة فاستعملوه فى الرياضة كما أخذوا الأرقام الهندية ·

وهذه العلوم هى أصل النهضة الأوربية ، وقد كان يسايرها أدب الاغريق وثقافتهم فى الفلسفة والمنطق وما اليهما · ولكن هذه الثقافة كانت تؤخر أوربا بينما هذه العلوم كانت تعمل لتقدمها · ولكن نرى « روجر بيكون » فى القرن الثــانى عشر يراقب هاتين الحركتين ، حــركة الأدب والفلســفة من الاغــريق وحركة العلوم التجريبية من العرب ، فيقول : « لو كان لى ان أفعل ما أشاء لأحرقت جميع الكتب التى ألفها أرسطوطاليس لأن درسها لا يؤدى الا الى ضياع الوقت ولا ينتج غير الجهل » ·

وقد ولد روجر بيكون ، ومات خلال القرن الثالث عشر · وكان يدرس فى جماعة اكسفورد · وهو يمثل لنا الفرق بين الطريقة الاغريقية ، طريقة التفكير الفلسفى ، والطريقة العربية ، طريقة التجربة التى اندفع اليها العرب بتجاربهم الكيماوية · ونحن ننقل هذه القطعة التالية منه لأنها تمثل صراعا بين طريقتين فى زمنه ·

« أما وقد شرحنا المبادىء الأساسية لحكمة اللاتينيين كما هى موضحة فى اللغة والرياضة والبصريات أرغب الآن فى أن أشرح مبادىء العلم التجريبى وذلك لأنه بدون انتجارب لا تمكن معرفة شىء على وجه الكفاية · وذلك ان هناك طريقتين للتعلم أو اكتساب المعرفة هما طريقة التفكير وطريقة التجربة · فبالتفكير نستنتج النتائج ونسلم بها ، ولكن التفكير لا يجعل النتائج يقينية ولا هو يزيل الشكوك حتى يسكن العقل الى الحقيقة ما لم يهتد العقل الى هذه الحقيقة عن سبيل التجربة · ومن الناس كثيرون يستطيعون المناقشة فيما يمكن معرفته ولكنهم لا يناقشون لأن التجربة تنقصهم وبذلك لا يتجنبون الضرر ولا يتبعون المفيد · وذلك انه اذا كان ثم رجل لم ير النار يمكنه بالتفكير ان يثبت ان النار تحرق وتتلف الأشياء فان عقله لا يقنع بذلك · وهو أيضا لا يتجنب النار بذلك ما لم يضع يده أو يضع شيئا يحترق فى النار فيثبت بالتجربة ما قاده اليه تفكيره ، وبعد ان يجرب هذه التجربة العلمية بالنار تتضح له الحقيقة · وعلى ذلك نقول ان التفكير لا يغنينا وانما الغناء فى التجربة » ·

ويجمع الآن المؤرخون حوادث تلك القصة التى سبقت « كوبرنيكوس » بنحو أربعمائة سنة ، وهى قصة تسرب المعارف العلمية الى أوربا قبل النهضة الكبرى ·

وخلاصة هذه القصة انه عقب أحراق المكتبة الثانية التى كانت بالاسكندرية انتشرت الثقافة الاغريقية فى الشرق الأدنى ، وذلك لأن

البـــلاط الفارسى رحب بالعلمـــاء اليهود والنسطوريين الهراطقـــة والافـــلاطونيين فتوافدوا الى فارس · وترجمت الكتب العلميـــة الاغريقية الى اللغة السريانية ثم بعد ذلك الى العربية ·

ولما استتب الاسلام صارت بغداد ملتقى الدراسات الاغريقية لبطليموس وأرخميدس وأقليدس وأبقراط وأيضا للدراسات الهندية التى عرف العرب بوساطتها الجبر ، هذا العلم الذى صار بعد ذلك أكبر معوان لتقدم الميكانيات فى القرن السادس عشر فى أوربـــا · وكانت الازياج الهندية فى الفلك فى أدخلت فى فارس قبـــل تأسيس مدرسة بغداد بنحو خمسين سنة ، ومعها الحساب الهندى ، وكلاهما دخل بعد ذلك بغداد ·

وقد افتتحت مدرسة بغداد بترجمة المجسطى لبطليموس وهندسة اقليدس ومؤلفات أبقراط . نقلها الى العربية مترجمون من اليهود · وكانت ازياج طليطلة (سنة ١٠٨٠) والازياج الالفونسية طلائع البحث فى الفلك وأساس الملاحة مدة الاكتشافات الكبرى · ولما أخـــرج المسلمون من أسبانيا بقى اليهود فكانوا يختصون بالفلك فى برتغال وبالطب فى أسبانيا ، وكان الطب فى ذلك الوقت يدرس باعتبـــاره ثقافة وليس باعتباره موضوعا ، ولذلك فانه كان ينتظر من الطبيب ان يعرف الرياضيات ·

وقبل أن يخرج العرب من أسبانيا كان اليهود الاســــبانيون المتعربون قد انتشروا فى أوربا يحملون معهم ترجمة العلوم الاغريقية ومؤلفات الخوارزمى وابن سينا وابن رشد · ونرى فى القرن الثانى عشر بل قبله طوائف من اليهود ينشئون فى أوربا مدارس للطب ويستعملون الكتب العربية أو المنقولة من العربية الى اللاتينية · وكان النقل أحيانا من العبرانية التى بقيت مـــدة ما لغـــة التعارف والثقافة بين الأمم · ونرى فى نهاية القرن الحادى عشر أن العالم اليهودى « ابراهيم بارشـــيا » وهـــو من المترجمين الـــذين أدخلوا

الرياضيات الجديدة فى أوربا . يلوم اليهود الفرنسيين لأنهم يجهلون الرياضيات · وفى سنة ١١٣٤ نجد كتابا عظيما يؤلفه فى الفلك عالم يهودى يدعى « ابراهيم بن حيا » فى مارسليا · وفى ذلك الوقت بينما كانت جامعة اكسفورد تقرر تدريس جزء صغير من الكتاب الأول لأقليدس نجد ان علماء قرطبة وطليطلة يؤلفون الكتب فى نظرية الاعداد وفى حساب المثلثات الكروى · وفى سنة ١١٥٨ نجد رجلا يدعى « ربى بن عزرا » يسافر الى انجلترا ومصر وينقل الى أوربا الجبر والكسور العشرية · وفى القرن الثالث عشر نجد أسماء أخرى مثل « موسى بن طبون » و « يوحنا هسبالنسس » وهمـا من اليهود الذين كان ينقلون من العربية الى اللاتينية مؤلفات اقليدس وبطليموس وأرخميدس وأبقراط وجالينوس .

وكان جميع الناقلين من اليهود ما عدا قليلين من المسيحيين مثل « ادلهار » الذى ادعى الاسلام ليتعلم فى قرطبة و « ليوناردو بيزو » و « ليوناردو فيبوناكى » و « جريجورى كريمونا » ·

وكما قلنا آنفا ان الفلك ارتقى عند العرب أكثر مما ارتقى عند الاغريق ونعرف ان « رجيبومونتانس » الذى سبق « كوبرنيكوس » تعلم الفلك من مصادر عربية ·

وفى نفس السنة التى ظهر فيها مؤلف كوبرنيكوس فى الفلك ظهر فيها أيضا كتاب ألفه فساليوس عن « مصنع الجسم الانسانى » فكان رائدا جديدا للطب الحديث · وفى هذا الكتاب نجد ان فساليوس يعتمد كثيرا على المؤلفات العربية والعبرانية ويدعـو الى التجربة والتشريح اللذين بدأ بهما الطبيب اليهودى « موندينو » فى بولونيا حوالى سنة ١٣٠٠ · ومدرسة بولونيا الطبية تأسست سنة ١١٥٦ والذى قام بتأسيسها يهود أسبانيون · وهذا ما حدث أيضـا فى المدرسة الطبية فى مونبلييه سنة ١٢٢٨ · وفى مدينة سالرنو أيضا قبل هذا التاريخ · وفى سالرنو هذه استخدم فريدريك الثانى طائفة

من العلماء اليهود فى ترجمة الكتب العربية الطبية والرياضية الى اللغة اللاتينية ٠

وكان نقل الفلسفة الاغريقية من العربية الى اللاتينية قد بعث رجال الدين فى أوربا منذ سنة ١٣٥٠ الى البحث عن الكتب الاغريقية القديمة لكى يعتمدوا عليها فى البلاغة والجدل الدينى ٠ وذلك لأن العرب لم يبالوا بهذه الكتب وانما كانت عنايتهم متجهة نحو درس العلوم الطبية والرياضة الاغريقية ٠ وعلى كل حال نجد انه عندما شرعت أوروبا فى درس الاغريق القدماء كانت الثقافة العربية قد وجهتها نحو درس العلوم التى رقى بها العرب الى مستوى أعلى من مستواها السابق أيام الاغريق القدماء ٠

ومن هنا نعرف ان اساس النهضة العلمية فى أوربا هى النزعة التجريبية التى نزع اليها العـــرب ونقلها اليهود الى أوروبا فكانت البذرة الصالحة للحضارة الصناعية الراهنة ٠

* * *

الحـركة البشرية الثانيـة

كانت ايطاليا البادئة بالنهضة فى القرن الخامس عشر لأنها كانت مركز البابوية الحافل بالديورة والمكتبات ۰ وكان للمطبعة أثرها فى بعث الكتب القديمة وتحريك الأذهان بمناقشتها والتفكير فى موضوعاتها ۰ ويمكن أن يقال على وجه الاجمال أن هذه النهضة الايطالية بدأت أدبية ثم انتهت علمية « بجاليل » الفلكى وغيره من أساتذة الطب الذين شرعوا يدرسون الجسم البشرى بالتشريح ۰

وتفشت هذه الخـميرة الايطاليـة فى أقطـار أوربا الكبرى فظهرت فى المانيا نهضة دينية على يد « لوثر » ۰ وظهرت نهضـة علمية محضة فى انجلترا على يد « بيكون » ثم « نيوطن » الذى ولد يوم وفاة جاليل ، كأن الأقدار توطأت على أن تبقى السلسلة متصلة الحلقات ۰ ثم ظهرت نهضة أدبية أخرى فى فرنسا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر على يد فولتير وديدرو وروسو ۰

اذا تأملت هذه النهضات جميعها ألفيتها حركات بشرية غايتها الاستقلال الذهنى والاعتماد على التفكير البشرى فى مواجهة هذا الكون ۰ فان لوثر يفصل النفس من حكم الكنيسة ۰ ونيوطن يجرؤ على قيـاس الـكواكب ووزن الأرض ۰ ثم يأتى هـؤلاء الأدبـاء الفرنسيون فيدعون الى « بشرية » لا تزال فروعها تمتد فى الثقافة

الحديثة ، كما لا تزال النزعة الآلية التى نزع اليها نيوطى واضحة فى النهضة الصناعية الآلية الحديثة ٠

والنهضة الفرنسية تشبه فى مجموعها نهضة أدبية محضة ٠ ولكنها فى آثارها وصميمها كانت أكبر من ذلك ، كانت كانت دعوة حارة الى تحرير الذهن البشرى والاكبار من شأنه والاعتماد عليه ٠ وكان جميع أبطالها ينظرون الى أوربا ، بل الى الدنيا ، كأنها وطنهم الاصلى ٠ وقل أن تجد نزعة حديثة فى أيامنـا فى الأدب أو العلم أو الفلسفة لا ترجع اليهم ايحاء أو تعيينا ٠ ولهذه النهضة ثلاثة أبطال بارزين هم :

١ ـ فولتير الذى دعا الى الاعتماد على الذهن البشرى دون التقاليد فخدم الروح العلمى الحديث وفسح الميدان للتفكير الفلسفى الحر ٠ ولم يكن عالما ولكنه كان بعد نيوطن أعـظم انســان فى العالم ٠

٢ ـ روسو الذى دعا الى تحرير الذهن من التقاليد ٠ ولكن دون الاعتماد على العقل وحده كما فعل فولتير ٠ بل يعتمد روسو على القلب ٠

٣ ـ ديدرو الذى شرع يجمع المعارف ويدونها فى موسوعة اعتمادا على أن معارف القدماء لا قيمة ، لهـا وعلى أن الذهن البشرى جدير بأن تجمع آثاره وتدون ٠

وكانت نتيجة هذه النهضة ، التى يمكن أن توصـف بأنهـا الحركة البشرية الثانية فى أوربا ، ان ثارت الثورة الكبرى فى فرنسا ٠ وهى ثورة تجد فيها أثر فولتير فى الدعوة الى الذهن والمنطق وأثر روسو فى الجملة على التقاليد والظلم ٠

وقد عاشت أوربا فى القرن التاسع عشر وهى تستظل بهذه

النهضة الفرنسية فى ثقافتها أو نزعتها الثقافية ٠ فان روسو هو الذى حـرك الأذهان الى درس « الرجـل الفطرى » حين قال بأن الطبيعة حسنة والاجتماع سيء ٠ فكان بذلك سببا لدرس الأتنولوجية والأنتروبولوجية والسيكلوجية والطبيعة ٠ ولا شك فى أن البحث العلمى قد نقض آراءه فى أن الرجل الفطرى خير من الرجل المدنى ٠ ولكن هذا لا يعنى أنه ليس الأساس لهذا البحث نفسه ، ثم لا ننسى هذه الثورة التى بعثها فى الآراء التعليمية وهى ثورة لم تنته بعد الى نتيجتها ٠

ومع أن فولتير قد بالغ فى حملته على الأديان فان هذه الحملة نفسها كانت من الأسـباب التى بعثت رجـال الذهن على درس الأديان القديمـة والحديثـة والاهتداء الى كشف كثير من الأسرار والعقائد التى انعقدت وتراكبت فى النفس الانسانية ٠ وما يسمى الأديان « المقارنة » انما هو درس خصب يعزى اليه الفضل فيه ٠

ولولا هذه الحركة البشرية الثانية لبقى الاستبداد السياسى مسلطا على أوربا ، وكان يكون منه هذا الوليد الذى تراه مرافقا له فى كل مكان وزمان وهو الاستبداد الذهنى فى الأدب والعلم ٠ فان الجامعة الحرة التى تدرس العلوم وتمارس الكشف العلمى لا يمكنها أن تعيش فى ظل الاستبداد ٠ وهذه النهضة الفرنسـية عندما حطمت الاستبداد تناولته من جميع وجوهه وأطلقت الذهن من جميع قيوده وأوغلت فى هذا الانطلاق وارتطمت بعقبات أوقعتها فى جرائم ، ولكنها بعد كل ذلك استقرت على الاعتراف بحرية الذهن فى التفكير ٠ فجعلت الأدب والفلسفة موضوعا منفصلا عن اللاهوت كما جعلت العلم ممكنا بل مندوبا اليه من كل انسان ٠

ولا نكاد نستطيع التمييز بين النهضة الايطالية (القرن الخامس عشر) والنهضة الفرنسية (القرن الثامن عشر) فانهما تنزعان نزعة بشرية واضحة ، ولكن النهضة الايطالية تسير فى تردد وتعثر ومراقبة · أما النهضة الفرنسية فتجرؤ وتصادم وتتحدى · وبأى شىء تتحدى ؟

بالذهن البشرى الذى ليس فوقه سلطان سوى سلطان القلب أو سلطان الانسانية ·

الحــركة البشرية الثالثــة

فى تحليل النهضة الأوربية الحاضرة بل فى تحليل أزمات أوربا الحاضرة ، نستطيع الاهتداء الى البذور أو الجذور الأولى . ونستطيع أن نتبين الاتجاهات التى تتجه اليها فروع هذه الشجرة فى الوقت الحاضر .

فقد عرفنا كيف نشأت النهضـة فى ايطاليـا بدرس القدماء والتنقيب عن مؤلفاتهم . وهؤلاء القـدماء كانوا وثنيين قاطعتهم أوربا لما عمها الظلام سنة ١٠٠٠ للميلاد . وكان الكشـف عنهم تحريرا للذهن البشرى وتوسعة له فى الآفاق . وكان لوثر المصلح الدينى احدى ثمرات هذه النهضة التى زادت على تحرير الذهن تحرير الضمير .

ثم ظهرت النهضة الثانية فى فرنسا قبيل الثورة الفرنسـية وكانت كفاحا صريحا للاستبداد بألوانه المختلفة . ويمكن أن يقال انها كانت نهضة أدبية واجتماعية وسياسية ودينية .

ثم جاءت النهضة الثالثة أو الحركة الثالثة فى منتصف القرن الماضى حين ظهر كتاب داروين « أصـل الأنواع » سـنة ١٨٥٩ ، فجعل التفكير فى الأصل والحال والمصير للانسان تفكيرا بشريا . وهنا يجب أن نلتفت الى سمات النهضة أو النهضات الانجليزية . فانها كانت فى الأغلب تنزع نحو العلم وليس نحو الدين أو الأدب .

فقد ظهر فيها روجر بيكون قبل ٧٠٠ سنة فتنبأ بالميكانيات ، حتى الطائرات ، وذكر قيمة التجربة المتكررة كأنها الأساس الذى يجب أن تنبنى عليه المعارف · ثم جاء سميه اللورد بيكون فى بداية القرن السادس عشر فوضع برنامجا للنهضة العلمية · ثم بعد ذلك جاء نيوطن فصبغ الذهن صبغة ميكانية (آلية) وهو الأأمل فى هذه الأزمة الحاضرة ، لأنه هو الذى أوجد النزعة الى اختراع الآلات . هذه الآلات ، هذه الآلات التى طردت وما زالت تطرد العمال من المصانع وتحدث العطل · وهذا العطل هو فى نظر العالم فراغ ونعمة ، وهو فى نظر الجاهل فاقة ونقمة · ولكن رويدا رويدا سيعرف السياسيون أن الانسان يمكنه أن يحيل على الحديد والنار أو على البترول والفحم والقوة الكهربائية الكد والعناء للانتاج وانه يمكنه أن يستمتع بالفراغ دون أن يشعر بهوان العطل ·

ولكن داروين أحدث نهضة جديدة تختلف من النهضة التى أحدثها نيوطن وان كانت كلتا النهضتين علمية · ولكن الأولى للميكانيات والثانية للبيولوجيات · الأولى تعالج الحديد وتؤثر بذلك فى مقدار الانتاج من المحصولات الزراعية والانتاج الصناعى · أما الثانية فتعالج ، أو سوف تعالج . الجسم البشرى لا بل الذهن البشرى · وموضوع كتاب داروين يتلخص فى أن الانسان والحيوان يرجعان الى أصل واحد · والموضوع يبدو بسيطا لنا الآن · ولكن الحرب القلمية التى قامت بين رجال الدين وبين الداروينيين مدة أربعين سنة تقريبا فى جميع أنحاء أوربا تدل على أن القرون الوسطى لم تكن قد ماتت حتى فى نهاية القرن الماضى ·

ونحن الآن فى غمرة هذه النهضة · وفى أوربا الآن بدايات فجة للانتفاع بها · ولكنها مع فجاجتها تومىء الى مستقبل حافل بالاحتمالات التى قد ترفع السلالات البشرية الى مستويات

من السعادة والكفاءة الصحية والاجتماعية لم نحلم بها من قبل

فما هو ان استفاض المذهب القائل بأن الانسان والحيوان من أصل واحد حتى أخذت الابحاث تنتشر عن مصيره فى المستقبل لأن منطق النظرية فى الماضى يجب أن تكون له دلالته فى المستقبل. وما دام الانسان كان حيوانا ثم ارتقى فلماذا يقف عن الارتقاء ، ولماذا لا ندرس الوسائل التى استخدمت لهذا الارتقاء فى الماضى وننتفع بها فى المستقبل ؟

ومن هنا رأينا الخياليين الذين يدعون الى « السوبرمان » أو الانسان الذى يرجى أن نستنتجه فيكون منا كما نحن من القردة مثلا . كما رأينا العلميين الذين اخترعوا علما أو فنا جديدا هو « اليوجنية » وهو البحث عن الوسائل السلبية والايجابية التى تعمل لرقى الذريات القادمة وحمايتها من الأمراض وزيادة كفايتها .

ومن هنا أيضا نشأ الرأى القائل بالتعقيم ، فصارت الحكومة تعقم الرجل أو المرأة اذا اعتقدت ان بهما مرضا جسيما أو عصبيا قد يرثه نسلهما . بل بعض الحكومات استعملت التعقيم لحسم المنازعات الاجرامية فى بعض الأفراد الذين يثبت عليهم العجز عن السلوك الحسن .

وواضح ان هذا المنطق الجديد ، منطق ترقية النسل واليوجنية والتعقيم ، يرجع الى نظرية التطور الى قال بها داروين . لان هذه النظرية جعلتنا ننظر نظرا « بشريا » لمصير الانسان . ونأخذ بيدنا معالجة ذهنه وجسمه ، وتخيل الأخيلة عنهما ، لا بل تعيين صفاتهما فى المستقبل . وقد أصبحنا نجرب التجربة السيكلوجية فى الكلب لكى نستنتج منها النتيجة فى

تلميذ المدرسة · ونلقح الحيوان بالأمصال لكى نستخرج منهــا العقــاقير للانســان ·

ونحن من هذه « الحــركة البشرية الثــالثة » فى خلط واضطراب ، نتخبط فى الموازنة بين الوراثة والوسط ، أو نقســو بدعوى تنازع البقاء ، أو نكسـبه العصــبية الســياسية لونا بيولوجيا ، أو نقف الحيرة بين المادية والحيــوية · وكل هــذا لأننا ما زلنا فى غمرة هذه النهضــة الجديدة ·

ولكنا عندما نؤرخ يجب ألا نتعــامى عن التجانس فى هذه النهضات المتوالية فى أوربا منــذ القرن الخامس عشر · فانهــا جميعــا تتسم بسمة البشرية ·

* * *

اللغة والنهضة

كانت أوربا مدة القرون الوسطى تحت سيطرة الكنيسة. وكانت هذه السيطرة على أشدها فى النواحى الثقافية · فلم يكن ارسطوطاليس يقرأ أو يدرس الا لخدمة الكنيسة ، ولم تكن الكتب تؤلف ، أو الأطفال يعلمون فى المدارس ، الا لهذه الغاية · وكان للكنيسة لغة لم يكن يتكلم بها الناس وانما يكتبونها فقط ·

ولكن نزعة الاستقلال التى فشت فى النهضة ، وجعلت ميكافيلى يستقل بالسياسة ويفصلها من الكنيسة ، وجعلت جاليل يستقل بالفلك ويفصله من الكنيسة ، وجعلت لوثر يفصل الدين نفسه من الكنيسة ·

ومن لوثر هذا نشأت القوميات الأوربية · فانه حين ترجم الكتاب المقدس من اللاتينية الى الألمانة جعل الدين المسيحى « قوميا » ورفع بذلك من شأن اللغات القومية التى لم تكن تكتب أو تدرس · ونالت اللغة اللاتينية عن مكانتها وظهرت اللغات الوطنية · وأصبحت كل منهم لغة الدين والعلم والأدب، وهى الظاهرة ، المدروسة ، حين صارت اللاتينية مغمورة مهملة ·

ولا يظن القارىء أن هذه المعركة بين اللغات القومية

وبين لغة الدين اللاتينية كانت من المعارك الخفيفة . فان بقاء هذه اللغة فى الجامعات الأوربية والزام طلبة المدارس الثانوية على تعلمها فى فرنسا وألمانيا وغيرهما ، بل بقاء التعابير والمصطلحات القانونية بألفاظها القديمة ، يدل على أنها كانت قوة كبيرة جدا . وأن الأمم الأوربية عندما تحدث الكنيسة ولغتها كانت تكافح أوعر المشاق فى حياتها الاجتماعية والدينية والثقافية . والى قبل مائة سنة كانت اللاتينية لغة التخاطب فى البرلمان الهنغارى .

وقد يقال ان أوربا لم تكسب بترك اللاتينية التى كانت لغة الكتابة عند جميع المثقفين واعتماد كل منها على نفسها واتخاذها لغتها بدلا منها . فإن اللاتينية كانت تربط بينها وتجعلها أمة واحدة دينا ولغة . ولكن المتأمل لتاريخ الحروب يجد أن هذا الاعتبار لا قيمة له . فان الانجليز حاربوا الأمريكيين وكلاهما ينتمى الى لغة واحدة ودين واحد . ولم تكن الحروب فى القرون الوسطى حين كانت اللغة اللاتينية عامة أقل مما كانت عقب النهضة .

ونحن فى أيامنا قد اصطبغت أذهاننا بصبغة عالمية فصرنا ننظر نظرة الرجاء لمنظماتنا الدولية ونفكر فى ايجاد لغة عالمية، ولذلك لا نستطيع الا الأسف على ضياع اللاتينية أو انحدارها الى زوايا الجامعات والديورة والكنائس . ولكن الشعور بالنهضة هو نفسه شعور بالاستقلال . والناهضون الذين دعوا الى العلم والأدب والتجديد فى الأخلاق والسياسة شعروا بكرامة قومية تبعثهم على الاكبار من شأن اللغة القومية . واتجه نظرهم الى المستقبل دون المبالاة للروابط التاريخية فى الماضى . ولو أن

الأوربيين وضعوا الدين ولغة الدين فوق القومية لكانت أوربا الآن دولة واحدة عاصمتها روما ·

وقد لقيت أوربا صعوبات كبيرة فى كل دولة بلغتها استقلال، وبقيت أكثر من مائة سنة عقب النهضة وهى تؤلف مؤلفاتها باللاتينية وتنقل اليها المؤلفات العربية والاغريقية حتى أصبحت لكل أمة كرامتها وكيانها واستقلالها ولغتها ·

ثم اخذ هذا الانفصال من الكنيسة الأوربية ، كنيسة روما ، يتفشى · وأخذت النفس الانسانية فى الاستقلال حتى فصلت الدولة من الدين · وأصبح الدين بعد ان كان يسيطر مدة القرون الوسطى على كل شىء مفصولا من كل شىء ·

وقد يسوء هذا بعض القراء · ولكننا هنا نحاول أن نقرر الحقائق التى تبدو لنا كما نقرأها فى تاريخ النهضة الأوربية ·

* * *

كلماتنا العربية الأوربية

تقارضت الثقافات وتلاحقت وأخصبت ولم تنفصل أمة عن العالم وتحيا في عزلة قط الا اذا كانت أمة الصين ، وعاد الضرر عليها هي وحدها ، وسار العالم في موكب الارتقاء حتى اذا فتحت أبوابها بعد عزلتها كانت قد تخلفت عن هذا العالم نحو الف سنة .

وتقارض الثقافات يخصبها كما لو كانت جسما حيا يتلاقح مع جسم حي أجنبي . فتخرج منه السلالات الجديدة ، ثم على مدى التطور ، الأنوار الجديدة .

وهذا الذي نسميه (القرون المظلمة) والذي نصف به السنين التي عاشت فيها أوربا فيما بين سنة ٥٠٠ وسنة ١١٠٠ ميلادية إنما كان مرجعه انعزال أوربا أيضا حين انقطعت مواصلاتها مع العالم في آسيا وافريقيا ، وحين أصبحت القرية استكفائية في اقتصادياتها . فلم تعد رومة تعرف الهند ولم تعد أثينا تسمع عن الصين .

وفي هذه القرون نفسها لم تكن الأمة العربية منعزلة . ولذلك كانت متمدنة . اذ كانت تعرف الصين واسبانيا وما بينهما - وكانت تتقارض الثقافة مع الهند والصين وايران . فنقلت صناعة

الورق من الصين الى أوربا . ونقلت الأرقام من الهند الى أوربا أيضـا .

ولولا الورق والأرقام لما كانت أوربا على علومها وصناعاتها الحاضرة .

ومن قبل ذلك بنحو ألفى سنة أدخل الفينيقيون ، وهم أمة سامية مثل العرب ، حروفهم ، التى نقحوها من الخط الهيروغليفى المصرى ، الى أوربا أيضا .

ونحن فى مصر ، فى الوقت الحاضر ، نحس اننا مظلومون مرهقـون بالاستعمار الأوربى . ولذلك ننفـر من الثقـافة الأوربيـة .

وليس شك أننا نعذر فى هذا الأسـاس . لأن أوربا تمارس الاستعمار بكل ما فيه من وحشـية مع الأمة العـربية وغيـر العربية . ولكن فى هذه الأمم الأوربية طوائف تعرف ولا تنكر أن الاستعمار جريمة . وقد كتبت عن الطلبة الذين احتفلوا فى باريس بيوم ٢١ فبراير ، وهو يوم نهوض الطلبة المصريين وانضـمام العمال المصريين اليهم حين هبوا فى تظاهرة تستنكر الاستعمار وتطالب بالاستقلال الى أن وصلوا الى ميدان قصر النيـل فخـرج اليهم الجنود الانجليز فقتلوا منهم وجرحوا .

وقد أصبح هذا اليـوم عيداً عالميا . هو رمز الكفاح من أجل الحرية والاستقلال ضد الأمم الاستعمارية .

ان فى أوربا أناسا طيبين يستنكرون الاستعمـار . وانا هنا أحاول أن أبين للقراء ، وخاصة لأعضاء المجمع اللغوى المصرى

الذين يكرهون الكلمات الأوربية ، أن لغتنا العربية تحتوى مئات الكلمات الأوربية · كما أن اللغات الأوربية تحتوى كذلك مئات الكلمات العربية · واننا نحن والأوبيين يجب أن نجد فى هذه الظاهرة مجالا للتعاون والحب وميدانا للوحدة البشرية التى يهفو اليها كل انسان انسانى ·

***

لقد سبقت الأمم السابقة أوربا فى الحضارة · ولذلك لا تستغرب أن تكون كلمة أوربا سامية (أروب أى غروب) · لأن الفينيقيين كانوا يصفون الأقاليم الأوربية بأنها غرب بلادهم على الجانب الآخر من البحر المتوسط ·

ولولا أن انهزم هنى البال القرطجنى ، وصهره أسدر نيال، فى محاربته للرومان لكانت أوربا الآن فى اشتراك لغوى مع الأمم السامية ·

وكما اقترض الأوربيون منا اقترضنا منهم ·

فقد كانت هناك دولة عربية حول دمشق أو بالقرب منها ·

هى دولة تدمر أو دولة زينب وهى التى يسميها العرب الزباء · فقد كانت هذه الدولة عربية يونانية · ومن مئات الكلمات التى دخلت لغتنا قبل الاسلام · ومما يلاحظ أن كثيرا من هذه الكلمات اليونانية يدل على أن الطبقات السائدة ، طبقة الحاكمين ، كانت عربية يونانية ·

اعتبر مثلا كلمة السيف · فانها يونانية · وقد كنت أشك فى ذلك وخاصة لأن السيف كان يوصف بأنه مهند أو هندوانى ، أى من الهند التى اشتهرت بصهر المعادن ، ولكن اتضح لى أن السيف كلمة يونانية لفظا ومعنى ·

ثم اعتبر الخطأ المشهور حين يقولون « خرجوا للصيد والقنص » فان المعاجم تفسر (القنص) بأنه هو الصيد · فكأنهم خرجوا للصيد والصيد · وهذا سخف ·

وانما التفسير الصحيح أنه قنص كلمة لاتينية بمعنى الكلبة (كانيس) · واذن تكون صحة الجملة (خرجوا للصيد بالقنص) أى بالكلاب ·

وأذكر أنى كنت أقرأ كتاب الحيوان للجاحظ · فوجدته يقول أن العقاب تنكدر على الذئب وتنشب مخالبها فيه فتقطع ظهره · وأعجبتنى كلمة (انكدر) وبحثت عنها فلم أجد لها أصلا عربيا ثلاثيا · وانما وجدت لها أصلا لاتينيا هو (انكيديرا) أى انقض عليه ·

ثم وجدت أيضا أن هناك كلمات ثقافية عديدة تعود الى اللاتينية أو اليونانية · مثل القلم ، والقرطاس ، واللغة ، والأدب والرقص ، والموسيقى ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والفلسفة ، والسفسطة ، والزخرفة ·

وكل هذه الكلمات ، عندما نضيفها الى كلمات الصين ، تدل على أن الطبقة الحاكمة ، التى كانت تمارس رياضة الصيد ورياضة الفنون الجميلة ، انما كانت يونانية لاتينية عربية · كما كان الشأن فى مصر عند دخول العرب حين كانت الطبقة الحاكمة يونانية رومانية مصرية ·

بل هناك ما يزيد هذا الرأى تأييدا · وهو أن كلمات القضاء والامتلاك يونانية لاتينية أيضا ·

اعتبر كلمات : القانون ، والقسط ، والقسطاس ، والقاضى والميراث ، والفدان ، والعقار ، ثم الجرن أو الجران ·

وأما كلمة قاض فترجع الى اللاتينية جوديك اللاتينية ·

وأما كلمتا قسط وقسطاس فهمـا بلفظيهمـا يسـتعملان فى اللغات الأوربية ·

وواضح أن كلمات البناء مثل قصر ، وقرميد ، وبلاط وافريز ، وبرج ، هذه كلها لاتينية ·

ومن الحسن أن ندرس هذه الدولة التدمرية لعله يكون فى ذلك كشف جديد لعلاقات عربية اغريقية لاتينية ما زلنا نجهلها ·

هذا بعض ما أخذته من الكلمات ·

ونستطيع أن نذكر من الكلمات العربية التى دخلت أوربا والتى تستعمل الآن فى لغاتها عشرة أضعاف ما ذكرنا هنا ·

وكل هـذا يدل على أن الثقافات تتقارض بأخـذ بعضها من بعض · وهذا التقارض هو ، فى النهاية ، تلاقح واخصاب وزيادة فى التفاهم والانسانية ·

وليس علينا لذلك أى ضرر من الأخذ بالكلمـات الأوربيـة للمخترعات والمكتشفات الأوربية ·

* * *

قبل خمسمائة سنة

فى مثل هذه الأعوام ، منذ خمسمائة سنة ، دخل محمد الفاتح القسطنطينية وانتهى بذلك تاريخ الدولة الرومانية الشرقية . وقام مقامها وملأ مكانها العثمانيون ، أى الدولة العثمانية .

وكان هذا كسبا عظيما للانسانية .

ونحن العرب الذين كابدنا من الحكم العثمانى ما لا نحب أن نذكره ، قد لا نسيغ هذا القول . ولكن حقائق التاريخ تنطق وحوادثه تشهد ، بأن دخول الأتراك فى أوربا ، قد بعث حوافز جديدة فى التطور العالمى .

فهو أحد الأسباب الكبرى للنهضة الأوربية .

وهو أحد الأسباب الكبرى لاكتشاف القارة الأمريكية .

وليس هناك ما يمكن أن نأسف عليه فى زوال الدولة الرومانية الشرقية فى سنة ١٤٥٣ . فقد كانت تحيا فى ظلام القرون الوسطى . لم يبق عندها من ثقافة الاغريق القدماء سوى تلك الغيبيات السخيفة التى كان رهبانها يتراشقون بها ويقتتلون عليها ، اذ كانوا يحاولون أن يعرفوا العالم الآخر ويرسموا خارطته ويعينوا حدوده الجغرافية دون أن يتكلفوا مشقة الوقوف على هذا العالم .

كانوا فى انحلال يحيون فى مجتمع ينهض على أساس من العقائد يدرسون الكتب القديمة فيحفظون كلماتها ولا يكادون يفهمون معانيها ، يعرفون الحرف ويجهلون الروح ·

كانوا أمة شائخة وكان الأتراك أمة ناشئة ·

* * *

وكان هؤلاء الأتراك ، على الرغم من سذاجتهم ، يقبلون على الدنيا ولكن فى غير استهتار أو انغماس · ولذلك لا نستغرب أن الاغريق فى القسطنطينية كانوا يصفون الرجل المستقيم الذى يوثق بكلمته بأنه « تركى » ·

واذا كان الأتراك قد تغيروا بعد ذلك وانغمسوا فى الملاهى والملذات فانما جاءتهم هذه الدعوى من العادات الاغريقية السابقة · وكثيراً ما نجد المثال والعبرة فى الشعب القوى الفاتح يخضع لعادات الانحلال واللهو التى كان يمارسها الشعب المغلوب والتى كانت سببا لهزيمته ·

ولو أن الدولة الاغريقية ، أى الرومانية الشرقية ، أتاح لها التاريخ أن تحيا الى الآن لكان فى بقائها الى عصرنا هذا امتداد للظلام وليس زيادة فى النور ·

* * *

نحن الأمة العربية لنا الحق فى القول بأن التاريخ قد ظلمنا باستيلاء الأتراك على أوطاننا ، لأن هذا الاستيلاء كان استعمارا بكل ما تحمله هذه الكلمة من المعانى السيئة · بل هو كان يزيد

على مساوىء الاستعمار العصرى بأنه لم يكن نيرا ، أى لم يكن يحسن إدارة الحكومة كى يحسن الاستغلال للأمم المحكومة ٠

وقد كنا نحن فى مصر الى سنة ١٥١٧ ، وهى السنة التى دخلت فيها بلادنا فى حوزة الاستعمار التركى ، من أعظم الأمم فى العالم حضارة ٠ وكانت التجارة العالمية بين أسيا وبين أوربا تلتقى فى القاهرة والاسكندرية ٠ وكنا على اتصال بأوربا ٠ وهو اتصال كان جديرا بأن ينقل الينا نهضتها ٠ ولكن الاحتلال التركى حال دون ذلك ٠ واحتجنا الى قرابة ثلاثة قرون ونحن فى عزلة الى أن جاءنا نابليون فشرعنا نستأنف اتصالنا بأوربا والحضارة العصرية ٠

ثم لم نكسب من الأتراك لغة حية أو ثقافة ناهضة كما كسب الهنود مثلا من الانجليز ، حين أخذوا بلغتهم وثقافتهم اللتين جعلتا منهم أمه عصرية ٠

كنا نحن الأمة العربية فيما بين ١٧١٥ و ١٨٠٠ نعيش فى ظلام لا يختلف من ظلام القرون الوسطى ، بل ربما يزيد ، بسبب الاحتلال العثمانى ٠

والى هنا تنتهى الزاوية السيئة من الاكتساح العثمانى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ٠

* * *

ولكن سقوط القسطنطينية ، قبل خمسمائة سنة ، فى أيدى الأتراك ، بعث هجرة اللغة الاغريقية الى أوربا ٠ فان كثيرين من المثقفين الاغريق ، أى الرومان الشرقيين ، وجدوا أن العيش فى

ظل الأتراك لم يعد يلائمهم · فتركوا بلادهم ونزحوا الى رومة وباريس وغيرها · ولم يكن الأوربيون يعرفون اللغة الاغريقية القديمة فتعلموها من هؤلاء النازحين · واتصلوا عن سبيلها بالفلاسفة والأدباء والعلميين من الاغريق القدماء · وأخصب هذا الاتصال أذهانهم التى لم تكن تعرف من الثقافة سوى تلك الثقافة الدينية التى لم تكن تتجاوز ديورة الرهبان والتى كان من المحرم فى كثير من الأحوال أن تتجاوز دراسة الكتب المقدسة ·

وسمى هذا الاتصال بالاغريق القدماء بالحركة البشرية · والمعنى هنا أن الثقافة الجديدة لا تعتمد على الالهيات والكتب الدينية فقط وانما تعتمد أيضا على « البشر » ، على المعارف ، وليس على العقائد ·

ومن هذا الحركة نشأ « العلم » لأنه معارف وليس عقائد · وهو الذى قرر للأوربيون السيادة على غيرهم من الأمم التى كانت لا تزال تحيا بالعقائد دون المعارف ·

لقد بسطت اللغة الاغريقية القديمة ، التى حملها النازحون من الاغريق ، أمام الأوربيون ، أمة عجيبة هى أمة الاغريق القديمة · فرأى الأوربيون هنا شعبا وثنيا ولكنه لا يعرف التعصب الدينى · اذ كانت حرية التفكير مباحة الى حدود بعيدة ، وكان المفكرون يكتبون ويخطبون كما لو كانوا لا يخافون أية سلطة · وعرفوا من الاغريق معارف فلكية كان الأوربيون قد نسوها فأحيوها ·

ولكن هذه المعارف لم تكن كبيرة فى قيمتها أو مقدارها · وانما الكبير الخطير الذى عرفه الأوربيون منها هو المنهج الذى أنتج هذه المعارف · وهو منهج التفكير الحر ·

* * *

هذه الحركة البشرية ، وهذا التفكير الحر ، هما احدى ثمرات الاكتساح التركى الذى أدى الى نزوح اللغويين الاغريق من القسطنطينية الى أوربا الغربية ، لأنهم أصبحوا قوة تحريرية للعقل الأوربى ·

وكان من أثر هذه القوة التحريرية أن فشا الاجتراء على اختراع النظريات العلمية · فشرع العلميون يقولون بأن الأرض كرة · واتجه الجغرافيون الى فكرة الوصول الى الهند عن طريق الغرب بدلا من طريق الشرق ·

وكان هنا حافز أيضا على هذا التفكير من استيلاء الأتراك ، وقبل الاتراك السلاجقة ، لأنهم جميعا منعوا اتصال الأوربيين بالهند وآسيا عن طريق مصر والبلاد العربية الأخرى ·

والحافز الى اكتشاف أمريكا هو بالطبع حافز سلبى من الاتراك · كما كان الشأن أيضا فى هجرة اللغويين الاغريق الى أوربا الغربية عقب سقوط القسطنطينية بدخول محمد الفاتح ·

ولكن النتائج كانت بعيدة الأثر :

١ ــ حرية الفكر والنظرة العلمية فى أوربا ·

٢ ــ اكتشاف أمريكا ونزوح الأوربيين اليها ·

ومن هذا الوقت الى الآن ، والأوربيون ، أو بالأحرى الغربيون ، يسودون العالم ·

* * *

كان الأتراك من حيث لا يقصدون ، سببا للنهضة فى أوربا ٠

ولكن لنا الحق فى أن نسأل هنا :

لماذا كان الأتراك فى القرن الخامس عشر ، عندما فتحوا القسطنطينية ، رمزا للشرف والقوة حيث كان الاغريقى ، حين يحب أن يطرى أحد اخوانه من الاغريق ، يقول انه « تركى » ، ثم لماذا انهاروا حتى صاروا فى السنين الأخيرة التى سبقت نهضة أتاتورك يوصفون بالضعف والتأخر والرجعية والاستكانة ؟

أعتقد أن السبب واضح ٠ وهو أن الأتراك بعد أن عملوا من حيث لا يدرون على اخراج أوربا من القرون الوسطى الى العصر الحديث ، وقعوا هم أنفسهم فى القرون الوسطى ٠

اذ ما هى القرون الوسطى ؟ أى ما دلالتها ؟

هى التقيد بالنصوص التى فى الكتب الموروثة دون مباشرة الطبيعة بتسليط العقل عليها واستخراج المعارف منها ٠

هى سيادة العقاءد على المعارف ، والتليد على الطريف ٠

هى الاكتفاء بالثقافة الدينية دون الثقافة المدنية ٠

هى ثيوقراطية الدولة ، أى الدولة الدينية دون الدولة المدنية ٠

وكل هذا يؤدى الى سيادة الرجعية ، أى الرجوع بالشعب فى عاداته وأسلوب عيشه وتفكيره الى ما كان عليه أسلافه قبل ألف أو ألفى سنة ٠

ومعنى هذا : الجمود والوقوف عن التطور ٠

وهذا ما نجت منه أوربا فى القرن الخامس عشر بفضل الاكتساح التركى . وهذا هو ما وقع فيه الأتراك أنفسهم وبقوا فى هاويته الى أن جاء أتاتورك العظيم فنهض بالشعب وأخرجه الى القرن العشرين ، الى النهضة .

* * *

هذه القرون الوسطى ، التى اصطلح المؤرخون على أنها انتهت بدخول الأتراك فى القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ ، أى منذ خمسمائة سنة ، كانت بالطبع تجد حوافز أخرى لافتتاح عصر النهضة .

اننا ، نحن الأمة العربية ، نسمع ونقرأ كثيرا عن النهضة . ولكن هل ندرى دلالتها او هل ندرى شروطها ؟

هل نحيا حياتنا العربية الحاضرة فى نهضة ام فى قرون وسطى ؟

هذا هو السؤال المتعب الممض . ولكن مسئولية المفكر تقتضيه أن يجيب عليه فى صراحة :

وجوابى : أننا ما زلنا الى حد بعيد نحيا فى ثقافة القرون الوسطى ، نؤثر العقائد على المعارف والقديم على الجديد . ولكن نور الفجر الجديد قد بزغ .

* * *

ما زال اخواننا اليونانيين يتشاءمون من يوم الثلاثاء لأنه هو اليوم الذى دخل فيه محمد الفاتح القسطنطينية · وما زالوا يتغنون بالأغانى التى تصبو الى الامبراطورية القديمة · ومازال عامتهم يذكرون أن أيا صوفيا كانت كنيسة ثم صارت مسجدا ·

ولكنهم مخطئون · لأن التاريخ لا يعود · وأيا صوفيا ليست الآن كنيسة وليست كذلك مسجداً · انما هى متحف تحف التاريخ المسيحى والتاريخ الأسلامى ·

* * *

طبيعة الحضـارة الأوربيـة

كلمتـا أوربى وغربى لا تعنيـان فى عقولنا العصرية دلالة جغرافية فقط ، اذ هما تحملان أيضا ما يشبه الدلالة القديمة لكلمة « هيلين » · فان هذه الكلمة كانت تعنى فى الأصل الشعب الأغريقى ولكن عندما تفشت حضارة الاغريق ، وسادت ثقافتهم ، صـار لكلمة هيلين معنى النزعة والفلسفة وأسلوب الحياة · ولذلك كان المصرى أو العربى أو المراكشى يعد نفسه هيلينيـا اذا كان ينزع النزعة الاغريقية فى هذه الأشياء ·

وهذا هو الشأن فى أيامنا فى كلمة أوربى أو عربى · فان الأمريكيين غربيون · وكذلك يوجـد فى أقطـار الشرق غربيون من العرب والهنود والصينيين قد آمنوا بالنزعات الأوربيـة فى الأدب والفن والفلسفة ، وأخذوا بعادات الأوربيين فى العيش وبالنظم الدسـتورية والمدنيـة فى القوانين : الحـكم البرلمانى والمساواة بين الجنسين ، والنظرة الموضوعية لهـذه الدنيـا والاحساس الاجتماعى فى مسئولية الفرد ·

والحضارة الأوربية تتغلب وتسود أينمـا وجـدت فى هـذا العالم · ولا يمكن أمة أن تحيا اذا خالفتها · ونعنى بالحياة هنا حياة القوة والعلم والثراء ·

حتى اليابان ، هذه الأمة الآسيوية العتيقة ، لم تنهض وتبلغ

مستواها العالى قبل الحرب الأخيرة الا بعد أن أخذت بأصول الحضارة الأوربية ٠

وليس « نهرو » زعيم الهند العظيم سوى رجل أوربى يتكلم باللغة الهندوكية ٠ ولا أستطيع أن أتصور نهضة عصرية لأمة شرقية ما لم تقم على المبادىء الأوربية للحرية والمساواة والدستور مع النظرة العلمية الموضوعة للكون ٠

وهنا سؤال : ما هو الأساس أو الأسس التى تبنى عليها الحضارة ، ثم الثقافة الأوربية ؟

ليس الاوربيون أصلح الناس للاجابة على هذا السؤال ذلك لأنهم لم يروا غير حضارتهم وثقافتهم . أى أنهم يجهلون المقارنة التى تعد الأساس الأول للنقد المثمر والفهم الناضج ٠

واعتقادى أننا نحن الغرباء عن هذه الحضارة وعن هذه الثقافة ، الأوربيتين ، أقدر على فهمهما ٠ لأننا نستطيع المقارنة ٠

ولقد قرأت كتابا للزعيم « الروحى » للفاشية أو النازية الألمانية فى هذا الموضوع ٠ وهو « هوستون ستيوارت تشمبرلين » الذى يقول أن هناك ثلاثة أسس لأوربا العصرية ٠ وهى منطق الأغريق أو فلسفتهم ، ثم نظام الرومان أى القوانين الرومانية . وأخيرا التراث المسيحى الأخلاقى ٠

ولست أنكر أن لأوربا شيئا من هذه التقاليد ، وأن لها بعض الأثر فى توجيهها ٠ ولكن هذا الأثر ضعيف جدا ٠ وقد انتهى المؤلف بعد أن شرح هذه الأسس الثلاثة الى أن التعصب العنصرى ضروريا لأوربا ٠ وأعجب الامبراطور فيلهلم بهذا الكتاب . واشترى آلاف النسخ منه ، ووزعه بالمجان على موظفى الحكومة الألمانية ٠ والتعصب العنصرى هو فى النهاية ، سيادة الألمان على جميع البشر

وكان « هلتر » لذلك من المعجبين به أيضا · وقد عمل به · ولقى النتيجه المحتومة لهذا المذهب ، وهى تألب الدنيا عليه·

واعتقادى أن تشمبرلين وهتلر كانا من أبعد الناس عن فهم الروح الأوربى العنصرى : روح الحرية والمساواة والدستور ، والنظر الموضوعى ، أى العلمى ، للدنيا ناسا وأشياء ·

وأنا أفهم شيئا واحدا ، واحد ليس له ثان ، هو أن الأوربيون سادوا فى الماضى ، ويسودون فى الحاضر ، لأنهم قد أخذوا بالصناعات الآلية ·

جعلوا الآلات تعمل بدلا من الأيدى · والحديد والنار يعملان بدلا من القوة البشرية ·

وكل ما نعرفه من الأخلاق الأوربية والعلوم الأوربية والحرية والمساواة والدستور ، هذه كلها هى ثمرات هذا الوسط الصناعى الجديد الذى لا يزيد تاريخه على مائة وسبعين سنة ·

كانت أوربا الى سنة ١٧٨٠ زراعية مثلنا · متأخرة مثلنا · ليس للمرأة فيها حقوق وليس للعامل فيها رأى · بل ليس له عقل غير هذا العقل الزراعى الذى يستسلم للخرافات · وكانت فقيرة مثلنا · بل كان كثيرا من عمالها الزراعيين « عبيدا » يعملون مكرهين فى النظم الاقطاعية السائدة وقتئذ ·

ثم جاءت الصناعة ، وهى فحم وحديد : وظهرت المصانع التى أحالت المواد الخام الى أشياء مصنوعة · والفرق كبير فى الثمن بين الاثنين · فان قنطار القطن الذى يباع خاما بعشرين جنيها يباع مصنوعا منسوجا بأكثر من مائة جنيه · وطن النحاس أو الحديد أو النيكل الذى يباع بخمسين جنيها وهو خام قد يبلغ ثمنه وهو مصنوع الف جنيه ·

اعتبر صناعات الساعات فى سويسرا • فان المواد الخام فى الساعة قد لا تزيد على خمسين قرشا ولكنها ، أى الساعة ، تباع بخمسة جنيهات •

هذا من ناحية الثراء فى الأمم الصناعية ، فان الأوربيون أثرياء لأنهم صناعيون •

أما من ناحية الثقافة فان العالم التجريبى يغلب عليها • لأن الصنع يحتاج الى العمل للتجربة • وليس العكس • أى ليس العلم هو الذى أوجد الصناعات ، وانما الصناعات هى التى احتاجت الى العلم ، وأرصدت العلماء للبحث • وأصبحت النظرة العلمية عامة تكافح النظرة التقليدية التى كانت سائدة فى العهد الزراعى السابق •

وليس فى عالمنا شىء يحرر العقل من الخرافات ومن التفسيرات التقليدية للأشياء المادية التى هى ثمرة العلم الذى يطلب تجربة اليد الى جانب تفكير العقل •

ومن هنا هذه المادية الأوربية التى تغلب على تفكير الأوربيين، هذه المادية التى هى ثمرة العلم الذى جلبته الصناعة والمصانع •

وكرامة العامل الصناعى واستقلاله ، ثم أيضا حريته الفكرية ثم المساواة بين الجنسين ، ثم احترام الدستور والقوانين ، كل هذا من ثمرات الوسط الصناعى ، وسط المدينة التى تنأى عن وخامة القرية • وسط العلم التجريبى •

ولا أنكر أن لهذا الوسط عيوبا • ولكن ما أتفهها الى جانب هذه القوة العظمى التى يتسلط عليها الانسان باستخدام الحديد والنار فى زيادة ثرائه ورفاهيته ، وامتداد ثقافته الى النظرة الاستيعابية للكون :. وأخيرا هذه الحرية ، الاجتماعية والفكرية ، التى لم تعرفها أمة زراعية ، أى أمة شرقية ، تعيش بالزراعة •

وهنا سؤال : لماذا يؤدى الوسط الريفى أو القروى الى البلادة والاستسلام فى حين يؤدى الوسط الصناعى الى الذكاء والاستطلاع ؟

الجواب : لأن الزراعة تمارس بالتقاليد وليس بالعلم ٠ وهذا على الرغم من أنها يجب أن تكون علمية ٠ والفلاح يعيش فى قرية منعزلة لا تصطدم بأحداث العالم ٠ والمباراة فيها محدودة وليست كالمباراة فى المدن ، حيث الآفاق للذهن والقلب أرحب وأبعد ، ثم أن تسلط الطبيعة بجوها المتقلب على نمو النباتات يحمل الفلاح على احساس دائم بأنه رهن الحظ ٠ ودرجة القراءة فى القرية معدومة أو محدودة ، وكذلك التساؤل والاستطلاع ٠

أما الوسط الصناعى فيكسب الصانع احساس السيطرة والقوة ٠ اذ ليس للحظ فى الصناعة شأن ٠ فهو يدير الآلة أو يصهر المعدن وهو يعرف النتيجة قبل أن يشرع فى العمل ٠ وهو يكسب من هذه الممارسة احساسا بالمنطق فضلا عن القوة ، ولا يمكنه أن يؤمن الا بالتجربة العلمية كما أنه كذلك يمارس النظرة الموضوعية فى حياته الاجتماعية والسياسية ٠

ثم هو يعيش فى مدينة تتحمل أعصابه منها صدمات متوالية من الأحداث المنبهة ٠ لأنها ، أى المدينة ، على اتصال صحفى بكوكب الأرض كله ٠ وهو يكسب النظرة العالمية لهذا السبب فى حين يقنع عامل الزراعة بالنظرة القروية ٠

ثم عامل الصناعة يرى ويقارن كثيرا ، وليس شىء يحرك الذكاء مثل المقارنة ٠ فهو يرى الحاكم والمحكوم ، والبذخ والفاقة ، والعلم والجهل ، وكل هذا بعيدا عن العامل فى الزراعة ٠

ولكلمات الحرية والمساواة والدستور والبرلمان والسياسة معان عميقة مقلقة عند العامل فى المدينة ، أى فى الصناعة • ولكنها لا تقلق عامل الزراعة ، ولذلك لا تنبهه •

ويمكن أن نقول أن الديمقراطية كلمة تحمل معنى خطيرا عند عامل الصناعة ، ولكنها لا تكاد تحمل أى معنى عند عامل الزراعة •

ونستطيع أن نقول أن الوسط الزراعى يبعث على القناعة والطمأنينة فى نفوس الفلاحين • وهذا صحيح • ولكن الى جانب القناعة والطمأنينة نجد الذهول والركود • ثم نستطيع أن نقول أن الوسط الصناعى ، وسط المدينة ، يبعث على القلق والتوتر ، بل ربما الجنون والانتحار ، فى نفوس العمال فى المصانع وهذا صحيح أيضا• ولكن الى جانب القلق والتوتر نجد الاستطلاع والاستقلال بل ربما العبقرية والاختراع •

وحضارة أوربا هى حضارة القلق والتوتر وأمراض النفس التى لا تحصى • ولكنها أيضا حضارة الاستطلاع والاستقلال والديمقراطية والعلم والاختراع ، أى حضارة المصانع ، وليست حضارة المزارع •

وبعد كل هذا ، المدافع تصنع فى المصانع ولا تزرع فى الحقول •

* * *

الثقـافة تـؤدى الى الحضـارة

١

أحسن ما يقال فى ايضاح الفرق بين الثقافة والحضارة هى ما نتكون به ٠ والحضارة هى ما نعمل به ٠

الثقافة علوم وفنون وفلسفات وعادات وتقاليد واتجاهات تكسبنا جميعا مزاجا معينا نتجه به فى سيرتنا ومعاشنا ونؤسس بها مجتمعا يتفق ومبادىء هذه المعـارف ولا يتنـافر معها ٠ أما الحضارة فهى ما نعمل به من أدوات سـواء أكانت هذه الأدوات حسية مثل آنية الطبخ أو مواد بناء . أو آلات أو مصنوعات . أم كانت معنوية مثل المؤسسات الاجتماعية المختلفة كالحكومة والمجلس النيابى والمجلس البلدى ونظـام الادارة وجباية الضرائب ونحـو ذلك ٠

والثقافة تسبق الحضارة وتؤدى اليها . لأنهـا هى بمثـابة الفكرة والحضارة بمثابة المادة ٠ وتلك القاعدة السيكلوجية التى نسلم بها جميعا ، وهى أن التعرف يؤدى الى التأثر ، والتأثر يؤدى الى التحرك . هذه القاعدة تنطبق أيضا على الثقافة والحضارة ٠ فنحن نتعرف الأشياء ، ثم نتأثر بهذا التعرف فنتحرك به الى عمل ما ٠ وهذا العمل قد يكون اختراع آله أو اكتشاف عقار أو ايجاد نظام ٠ وهذه هى الحضارة ٠ ويمكن أن نقول أن الحضارة الصناعية القائمة التى تمثل فى المصانع الكبرى للنسيج أو لمركبات النقل ،

أو للبواخر والبوارج ، أو للطائرات ـ هذه المصانع انما هى الثقافة الرياضية والفيزيائية قد تجمعت فى حضارة الآلات والحديد والفولاذ . ولا يمكن لأمة أن تعيش فى حضارة صناعية ما لم تخذق الثقافة العلمية التى أدت اليها . وهى اذا أهملت هذه الثقافة العلمية فأنها سرعان ما تعود الى الحضارة الزراعية التى تنتكس اليها كل أمة حين تتقهقر ثقافتها .

وكل تحرك اجتماعى يحتاج الى تحرك ثقافى ، وليس هناك غير الأمم الزراعية التى تستطيع أن تعيش على ثقافة راكدة لا تتحرك ولا تتباين ولا تتنوع . لأن المجتمع المتحرك يحتاج الى ثقافة متحركة متباينة متنوعة . ومن هذا ضرورة الانقلاب الثقافى لايجاد انقلاب فى الحضارة . وهذا هو ما فعلته الصين واليابان وتركيا وايران ، فأنها حين أرادت أن تأخذ بالحضارة العصرية ، أى حضارة الصناعات والآلات اضطرت الى أن تأخذ قبل ذلك بثقافة العلوم العصرية . وليس من المستطاع أن تأخذ أمة بالحضارة العصرية اذا كانت تعيش على ثقافة قديمة لم تستطع فى تاريخها الماضى الا أن تثمر الحضارة الزراعية فقط ، لأن كل حضارة تحتاج الى ثقافة تنشئها ثم تفسرها وتلائمها وتماشيها . والا حدث التزعزع الاجتماعى الذى ينشأ من التنافر بين وسط حضارى جديد ووسط ثقافى قديم . وأقل النتائج التى يثمرها هذا التنافر أن الفرد الذى يعيش فيه ويعانيه لا يؤمن بتقاليده وعقائده وتراث أبائه من أخلاق . ثم هو مع ذلك لم يتهيأ بثقافة جديدة تزوده بميزات جديدة من العقائد والأخلاق ، وهو هنا يعيش بلا ضمير .

ولعل مما يزيد بصيرتنا بهذا الموضوع تواتر الاختيار التاريخى بشمول الفوضى الأخلاقية أيام الثورات والانقلابات ، لأن الثورة

أو الانقلاب تعنى تغيرا فى الثقافة وتحركا فى الاجتماع ، وكلاهما يعنى تغيراً فى الضمير · وليس من الميسور على كل انسان أن يتغير ضميره بالسرعة التى تقتضيها الثورة ، لأنه حين يترك تقاليده وميزان الفضائل والرذائل الذى ورثه يحتاج الى أن يستبدل بهما تقاليد جديدة وميزانا جديدا · لكن الثورة لا تسعفه بهما ، فهو لذلك يعيش سنوات فى فوضى أخلاقية ·

وقد قلنا بأن الثقافة تعنى العلوم والفنون والعقائد والعادات · ولكنا لم نقل أن الأهم من هذا كله اللغة التى يتفاهم بها الشعب ، لأن أعظم تراث اجتماعى لأية أمة هى لغتها · وهى أعظم مؤسساتها وأقدرها على خدمتها · واذا استعصت هذه اللغة على الفهم ، أو اذا صعب تعلمها ، أو اذا عجزت عن الأداء العصرى واستيعاب العلوم والفنون العصرية ، فان كل شىء بعد ذلك يستعصى على الأمة ما لم تنبذ لغتها وتتخذ لغة أجنبية · ولكن هـذا العمـل ليس من الهينات ، لأن الأمة تحتاج الى مئات السنين لكى تستطيع نسيان لغتها واتخاذ لغة أخرى · وهى فى هذا الاستبدال تتعرض لألوان من الخطر لا تحصى ، وقد تنحدر الى موات لا تنهض منها ·

وقد قيل أن الكلمـات هى بذور الأفـكار ، ولكننـا ننسى أن الكلمات أيضا هى بذور الأعمال · فان ألفاظ الحرية والمسـاواة والاخاء التى ترددت على أقلام الكتاب الفرنسيين فى القرن الثامن عشر كانت بذورا لأفكار وأعمال لما ننتـه منهـا حتى الآن · وقد تكهرب العالم سنة ١٩١٩ بـ « كلمات » ألقاها عليه الرئيس ولسون بشأن حقوق الأمم الصغيرة وتقرير المصير ونشأت من هـذه الكلمات « عصبة الأمم » · وقس على ذلك ·

فقاعدة الثقافة هى اللغة · ولا يمكن بتاتا ايجاد ثقافة راقية بلغة منحطة ولا ثقافة متحركة بلغة جامدة · لأن تحـرك الثقـافة

ورقيها يجب أن يستتبعا رقى اللغة وتحركها ، أى تطور ألفاظها القديمة وتلبسها بالمعانى الجديدة ، أو اصطناع ألفاظ جديدة أجنبية أو وطنية • ومن هنا هذه الظاهرة التى يوضحها لنا التاريخ ، وهى أنه عندما وجدت الأمم الأوربية أن اللغة اللاتينية التى كانت وسيلتها الثقافية منذ القرون الوسطى قد أصبحت لا تتفاعل مع المجتمع الأوربى فى نهضته الجديدة ولا تسايره تأثرا وتأثيرا عمدت الى نبذها واتخاذ لغاتها العامية • وهذا أيضا هو تفسير الانقلاب الثقافى الجديد فى الصين اذ أنها بقيت آلاف السنين وهى تعتمد على لغة أو كتابة قديمة حجبت عنها الحضارة العصرية . فلما استقر رأيها على الأخذ بهذه الحضارة عمدت الى لغتها فاستحدثت منها طرازا جديدا للآراء يتفق وضرورات هذه الحضارة •

ومهما كتبنا فاننا لن نبالغ فى قيمة اللغة للأمة ، نعنى اللغة العصرية التى تقبل التطور وتقدر الاستيعاب للفنون والعلوم واصطناع الألفاظ الجديدة ، اللغة التى لا يجد فيها المفكر حرجا يضيق عليه تفكيره ويضلله باتخاذ ألفاظ لا تؤدى أغراضه ، أو تمنعه من أن يتناول بعض الموضوعات العلمية أو الفنية أو الفلسفية لأنه يجد عجزا فى اللغة عن أداء معانيها •

الديمقراطية : نظام المجتمع

كلمة الديمقراطية تعنى حكم الشعب · أى أن الشـــعب يحكم نفسه ·

وكان الاغريق القدماء يعرفون الحكم الديمقراطى فى المدن فقط · وكانت وقتئذ مدنا صغيرة ·

فلما زالت دولة الاغريق لم نعد نجد هذا الحكم الديمقراطى الا منذ مائة سنة أو أقل فى أوربا وأمريكا · وذلك لظروف يسهل ايضاحها · فان الشعب الذى يحكم نفسه يحتاج الى أن يكون كله ، أو على الأقل الناجبون فيه ، متعلمين ، واذا عرفنا أن التعليم لم يصر الزاميا فى انجلترا مثلا الا فى ١٨٧٠ فاننا نستطيع أن نفهم أن كلمة الديمقراطية كانت من الكلمات التى تدل على معنى المستقبل وليس للحاضر الراهن · أى أنها كانت أملا يرجى حين يعم التعليم ·

ولكننا فى الوقت الحاضر نذكر هــذا النظام فى الحـــكومة وليس بمعناه الكامل المرجو ، ولـكن بما وصل اليه من الاقتراب من هذا المعنى الكامل المرجو ·

ففى سويسرا نجد الديمقراطية على اعلاها فى الأمم الغربية · ولا يستطيع سويسرى أن يعقل أن أحد زعماء وطنه يمكنه ايجاد نظام نازى أو فاشى ، لأن هذا النظام يفرض طغيان طبقة تزعم أنها

ممتازة على الشعب فى الكفاية والأمانة للحكم · وهذا مالا يفهمه السويسريون لأنهم كلها سواء فى التعليم ، وعلى مقدار حسن من الرخاء ، ولهم حريات مكفولة بالدستور · بل مكفولة بما هو فوق الدستور ، وهو الاحساس العام بالحقوق والواجبات ·

* * *

كان الحكم فى العصور القديمة ملكيا ، بل كان الملك عند المصريين والرومان يعد الآلهة · ولما جاء الاسكندر المقدونى الى مصر فى القرن الرابع قبل الميلاد ، جعله الكهنة ابنا للرب آمون · وواضح انه حين يكون الملك الها فان الشعب لا يمكن أن يكون شيئا، بل أن الثورة عن الملك عندئذ تعد كفرا والحادا ·

ثم نجد فى القـرون الوسـطى ملوكا ، ليسوا من الالهة ، ولكنهم يحكمون كما لو كانوا منها · وكان النظام الاقطاعى يؤيدهم فى حكمهم المطلق الذى لم يكن يحد منه سوى قوة الأمراء والنبلاء · وكثيرا ما نقرأ عن « الحق الالهى للملوك Divine Right of kings فى الثورات التى قامت بها انجلترا وفرنسا وايطاليا · وهذا الحق هو التراث الفرعونى الامبراطورى من مصر وروما ·

فلما ظهرت الطبقـات المتوسـطة ، المؤلفـة من الصـناعيين والتجـاريين والزراعيين ، وحطمت النظم الاقطاعيـة والغت الرق الزراعى وهدمت العروش التى كان يزعم متبوئوها هـذا الحق الالهى ، شرعت الديمقراطية فى الظهور ·

شرعت فى الظهور على أيدى رجال الطبقات المتوسطة · وكانت الدائرة محدودة والمعنى مقصورا على هذه الطبقات · أما العمال فلم يكن لهم من الشأن ما يبرزهم الى الوجود السياسى ·

ولكن منذ منتصف القرن الماضى شرع العمال فى أوربا يحسون الوجدان السياسى ويطالبون بالتمثيل النيابى • ومنذ ذلك الوقت والدائرة تتسع رويدا رويدا الى الشعب كله •

* * *

وهذا الذى قلت ينطوى على معنى أكبر مما تفيده كلمة الديمقراطية •• فان الديمقراطية نظام فى المجتمع قبل أن تكون نظاما فى الحكم • بل هى نظام فى الحكم لأنها نتيجة لنظام معين فى المجتمع •

ذلك أن النظام الاقطاعى لا يمكن أن يهيىء للحكم الديمقراطى•

بل كذلك نظام الزراعة الاقطاعى أو شبه الاقطاعى الذى ما زلنا نجده فى كثير من الأمم العربية لا يمكن أن يهيىء للحكم الديمقراطى • اذ كيف نطالب الفلاحين فى قراهم النائية ، فى فقرهم المدقع ، فى اعتمادهم الأعمى على مالك الأرض الثرى ، وأخيرا فى جهلهم التام بشؤون الشعب وأميتهم الكاملة فى المعانى السياسية والاقتصادية ، كيف نطالبهم بأن يكون لهم رأى فى نظام الحكم وبرامج السياسة ومقدار الضرائب وحقوق الصحافة وحرية الخطابة ؟

ان هذا محال • وقد كان محالا فى أوربا الى أن نقلت الفلاحين من مزارعهم الى المصانع أو الى أن منحت فلاحيها حقوق عمال المصانع مثل تاليف النقابات • •

ذلك أن عمال المصانع يتكتلون • وقد عاشوا فى المدن • وتعلموا • وطمحوا • فصاروا يطلبون التمثيل السياسى وصار لهم نواب فى البرلمانات • واصبحت كلمة الديمقراطية كلمة حية تروح

وتغدو على ألسنتهم ، فتكسب الغـافل تنبهـا ، والذليل كرامة ، والذاهل وجدانا ٠

ونحن نعرف مثلا أن الملك فؤاد ألغى الدستور فى ١٩٣٠ ، فلم نثر عليه ، بل أنه وجد من ساستنا وصحفيينا من عاونه على ارتكاب هذه الجريمة العظمى . لسبب واحد ، هو أن الوجدان السياسى لم يكن عاما فى الأمة ٠ ولو كان عاما قويا لشنق الملك فؤاد وجميع من عاونه من الوزراء والسـاسة والصـحفيين على الغاء الدستور ٠

ولا أنكر هنا يد الاستعمار المدمرة التى كانت تعين المستبدين على تحطيمنا وتفتيت قوانا فى مشاغبات ومصارعات داخلية حتى لا نستطيع مواجهة مشكلتنا الكبرى وهى الاستعمار ٠ ولكن قوة الاستعمار كانت تضعف ازاء الوجدان السياسى فى الأمة ٠٠ لو أنه كان موجودا ٠

* * *

وثم مثال آخر ٠ فان مجلس الشيوخ الذى كان مؤلفـا من الباشوات والبـكوات وأعوانهم رفض منح الفـلاحين حق تأليف النقابات ، وكذلك فعل مع الخدم ٠

ولم يثر عليه أحد للسبب نفسه ٠ وهو أن الوجدان السياسى بين الفلاحين والخدم كان معـدوما أو كالمعـدوم ٠ اذ كانوا فى فقرهم وأمتهم بعيدين عن العناية أو الاهتمام بحقوقهم السياسية ٠

ولذلك يجب أن نعترف بأن كلمة الديمقراطية كانت فى السنين الثلاثين الماضية أمنية فى مصر ، ولم تكن قط تدل على نظام فى الحكم ٠

بل ان ساستنا انفسهم كانوا اقطاعيين فى احساسهم ، وان لم يكونوا كذلك فى مجتمعهم • فكان سلوكهم سلوك الاقطاعيين من النبلاء والأمراء ، وكانوا جميعا يتطلعون الى :

شراء عزبة •

اقتناء سيارة •

قصر فى الزمالك

قصر فى الاسكندرية

ادارة الشركات •

فصوص من اللؤلؤ والماس •• الخ ••

أفكار اقطاعية بعيدة كل البعد عن روح العصر ، وهى أبعد عن روح الديمقراطية •

* * *

ان فى أوربا وزراء يقصدون الى وزاراتهم الأوتوبيس • وقد رأيت أنا بنفسى ، بعينى ، كليمنصو ، وهو رئيس وزارة ، ينتظر الأوتوبيس ويركبه •

إحساس ديمقراطى لا يمكن أن نتصوره عند وزرائنا السابقين أصحاب الضياع •

بل كذلك نجد الفرق العظيم بيننا وبين أوربا حين نقارن بين أصغر المهن وأعلاها • ففى اقطار أوربا على اختلافها لا تزيد مرتب الوزير على خمسة أو ستة أمثال مرتب الكناس •

الكناس والوزير هما محك الديمقراطية · فاذا تقاربا فى الأجر كانت الديمقراطية · واذا تباعدا فى الأجر كان النظام الاقطاعى فى الروح · وان لم يكن فى الواقع والقانون ·

ان الثورة التى قمنا بها فى مصر هى ثورة الطبقة المتوسطة ثورة الرجل « اللى فى حاله » ·

الرجل الذى يمد رجليه على قد لحافه ·

وهذا الرجل ليس من العمال · وكذلك ليس هو من النبلاء والأمراء ، واخوانهم الباشوات والبكوات ·

ولكنه يحس قرابته من العمال اذ هو يعمل مثلهم ، وان يكن عمله هنا بعقله وليس بيديه · فهو عامل يتعب ويعرق · ويعرف أنه اذا لم يتعب ويعرق فانه لن يجد لقمة العيش · ومن هنا التفات هذا الرجل ، رجل الطبقة المتوسطة ، الى العمال ، الى الفلاحين والخدم واعترافه لهم بحق تأليف النقابات · وسعيه لأن يكفل لهم العيش الشريف بتحديد الأجور والايجارات ومحاولته الغاء الرواسب الاقطاعية فى امتلاك الأرض · بل كذلك محاولته تطهير الادراة الحكومية حتى ترعى الضعف والفقر ولا تقتصر على خدمة الأثرياء والأقوياء ·

يجب أن نساعد هذا الرجل ، رجل الطبقة المتوسطة ، على أن يغرس فى بلادنا هذه الشجرة ، شجرة الديمقراطية ، والفرصة الحاضرة هى خير الفرص لتحقيق ذلك · فان لجنة الدستور تستطيع أن ترى رؤيا جديدة لوطننا بأن تهيىء للمجتمع الجديد الذى يحيا على الصانع ويأخذ بالأخلاق الديمقراطية ·

ورجل الطبقة المتوسطة هو فى النهاية عامل تقتضيه مصلحته رعاية العمال سواء كانوا عمال اليد أم عمال الذهن ·

انى أخاف على وطنى ..

التاريخ لا يعيد نفسه . ولو فعل لدار حول نفسه . فلا يكون هناك ارتقاء الى أعلى أو تقدم الى الأمام ، وانما تكون هناك حركة دائرية تنتهى الى حيث ابتدأت . وانما التاريخ يعيد المشكلات التى تشبه المشكلات القديمة ويقدم لها الحلول التى تشبه أو لا تشبه الحلول القديمة ، ولكنها لا تطابقها اذ هى تجرى على مستوى أعلى . أى أن التاريخ يدور ، ولكن فى حركة لولبية ، كلما انتهى من دورة صعد درجة الى أعلى وقام بدورة أخرى .

ونحن فى هذه الأيام نعانى مشكلة بل مشكلات فلسفية كتلك التى عانتها أوربا فى نهضتها الأولى فى ايطاليا ونهضتها الثالثة فى فرنسا .

وقد ظهر بيننا ، نحن المصريين ، ناهضون مثل قاسم أمين الذى دعا الى تحرير المرأة . ومثل محمد عبده الذى قال : أنه يعتقد أن كلمة « زندقة » ليست عربية وانها فى الأغلب محرفة عن « هرطقة » اللاتينية . وانه ليس فى الاسلام زندقة .

وكلاهما عمل لتحريرنا . الأول حرر المرأة من الحجاب . والثانى حرر افكارنا من القيود ، ونحن فى حاجة الى ان نذكرهما هذه الايام .

ماذا كان يقول محمد عبده فى ظروفنا الحاضرة ؟

ماذا كان يقول قاسم أمين في هذا الخبر الذى ذكرته الصحف وهو أن حكومة لبنان قد قررت تعيين ثلاث سيدات فى المجلس البلدى وتعيين سيدتين للقضاء ؟

ولكن فوق محمد عبده ، وقاسم أمين ، أحس كأن ذكرى فولتير تصدم رأسى كما لوا كانت حجرا يسجه ·

« ايكرازيه لاتفام » · اسحقوا الخزى · صيحة مدوية صاح بها فولتير قبل أكثر من مائتى سنة ·

أى خزى هذا ؟ هو خزى الاضطهاد لمن يخالفوننا فى الرأى ··

اننا فى أزمة فلسفية من حيث أسلوب الحياة ، ومن حيث نظام المجتمع الذى يجب أن نعيش فيه · ونحن أيضا فى تنازع بقاء مع أمم كبيرة وصغيرة ·

هل نحيا أحرارا نفكر كما نشاء ، وكما يهدينا اليه تفكيرنا ، أم نتقيد بقيود الماضى · والى متى تبقى هذه القيود ؟ ألف سنة قادمة أم مليون سنة قادمة ؟ ثم هل نحيا فى مجتمع انفصالى مختلط ، يختلط فيه الجنسان ، وتعمل فيه المرأة أعمال الرجال أم نحرم المرأة حقها الانسانى فلا تكون نائبة فى البرلمان أو وزيرة أو سفيرة أو قاضية ؟

هذه الأزمة الفلسفية التى نعانيها ، أى فلسفة العيش ، قد وجدت أخيرا من التفكير والتعبير فى موضوع الأدب والعلم ما حملنا على المناقشة التى تشبه الملاكمة · والذى حملنى على كتابة ما تقدم وعلى الكلمات التالية هو فولتير · ذلك أن هذا الأديب العظيم الذى علم أوربا ، وعمم حرية التفكير ، سئل ذات مرة : من هو أعظم رجل فى العالم ؟ فأجاب : هو اسحق نيوتن ·

ولم يكن اسحق نيوتن من رجال الأدب الذين استطاعوا أن يعرفوا أن رجل العلم أيام النهضة خير من رجل الأدب وأنفع منه · وبكلمة أخرى ، لو أن فولتير كان قد سئل أيهما أنفع لأبناء فرنسا كي يدرسوه وينقلوا مؤلفاته الى لغتهم ··· « شكسبير » مؤلف روميو وجوليت أم « اسحق نيوتن » صاحب مبدأ الجاذبية ؟ لقال فورا ! انه اسحق نيوتن ·

وقد درس فولتير شكسبير وكان يتقن اللغة الانجليزية التى تعلمها فى انجلترا · ولكنه كان يفهم أن الحضارة علم وصناعة · ولذلك أثر اسحق نيوتن عليه لأنه فهم من العلم انه ارتقاء وحضارة ·

وهذا هو ما حملني في أول المناقشة الخاصة بالمفاضلة بين العلم والأدب على أن أقول بأفضلية العلم · لأننا فى نهضتنا الحاضرة نحتاج اليه ، اذ هو وسيلة التمدن · ولا تمدن ولا قوة بلا علم · وأننا نستطيع أن نؤجل « الترف الذهنى » او الأدب كما يفهمه بعضنا ، « ماكبث » و « الملك لير » بلا ضرر · وعندنا ما يكفينا من الترف الذهنى ، الحسن والفاسد ، فى أبى تمام وابن الرومى · والمتنبى وأبى نواس · واذا كان لابد من الأدب فليكن أدب الكفاح والرسالة ، وليس هذا أدب شكسبير ·

أن القراء العرب يحتاجون الى موسوعة مثل الموسوعة التى كان يشرف على تحريرها « ديدرو » وكان يشترك فيها فولتير والتى هيأت الشعب للثورة الكبرى ·

وهذه الموسوعة هى ٩٩ فى المائة علوم وصناعات ·

والقراء العرب يحتاجون الى التنوير لعقولهم الشرقية · ولو قرأوا كتاب الأمهات لبريفولد وكذلك كتاب العلم فى التاريخ لبرنال ، لتغيرت الدنيا أمامهم ·

ما هى نهضتنا ؟

ما هى القيم التى ننشدها ؟

ما هى الرؤيا التى نحب أن نراها لبلادنا بعد عشر سنوات أو مائة سنة ؟

هل هى رؤيا الحجاب للمرأة ؟

هل هى رؤيا أدب أبى نواس وروميو وجولييت ؟

هل هى رؤيا القيود والحدود الفكرى البشرى ؟ هذا يجاز فيه التفكير وهذا لا يجاز فيه ؟

ان الذهن العربى فى حاجة الى أن يتغير · أى الى أن يتطور ·

ان قلب أفريقيا الأسود يتغير فى عصرنا · حتى أن الناهضين فى معسكرات بلجيكا وفرنسا وبريطانيا يسمون أنفسهم « متطورين » · وهم يفهمون من هذا الوصف أنهم قد تغيروا وأنهم قد تغيروا وأنهم دائبون فى التغير والبعد عن الجمود ·

ولو أننا كنا متطورين لما كان يمكن أن يفكر أحد منا فى محاكمة « الشيخ بخيت » لأنه له رأيا خالف الكثرة · ولو كنا متطورين لما كانت هذه المناقشة بشأن المفاضلة بين العلم والأدب · ولو كنا متطورين لكان لنا نساء قاضيات ونائبات ···

ولو أن فكرة التطور كانت تسود العقلية العربية ، ولو أن كتب العلم ، من داروين ، وداروين خطير هنا ، الى برنال الى فريزر الى بريفولد ، كانت منشورة تقرأ وتناقش ، لما وصلنا الى هذه الحال الأسيفة من جمود ، بل تعفن الذهن ·

وأن شيء أكبر دلالة على تعفن الذهن من أن تؤلف لأبي نواس ، وعنه ، نحو عشرة كتب · ثم نقول بعد ذلك أننا لسنا في حاجة الى العلم ؟ وانما نحن في حاجة الى الأدب ؟ وأي أدب ؟ أدب روميو وجوليت ومكبث وهامليت ·

أنكروا يا ناس هذا الدق لأبوابنا في غزة · اننا لا نحتاج الى مسرحيات شكسبير ، ولا نحتاج الى تقييد الفكر ، وانما نحتاج الى انشاء كليات لدروس العلوم ·

ونحتاج الى ترجمة مائة كتاب في العلوم والمناهج العلمية ·· انى أخاف على وطني ··

* * *

الفهرس

الموضوع | صفحة

الموضـــوع	صفحة
كلماتنا العربية الأوربية	٧٦
قبل خمسمائة سنة	٨١
طبيعة الحضارة الأوربية	٨٩
الثقافة تؤدى الى الحضارة	٩٥
الديمقراطية : نظام المجتمع	٩٩
انى أخـــاف على وطنى	١٠٥

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٥٩٧ / ١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3382 — 5



في منتصف القرن التاسع عشر عادت البعثات التعليمية التى أرسلها والى مصر محمد على وبعودتها بدأ عصر التنوير فى الثقافة المصرية على أكتاف رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى وفرح أنطون وغيرهم.

هكذا بدأت رحلة التنوير رحلة استشراف المستقبل وطموح الارتقاء بالإبداع والبحث عن الحق والعدل والحرية والجمال .. رحلة هدفها غرس قيم الحرية وتحكيم العقل والتسامح ـ حق كل الناس فى العيش بحرية وسلام .. رحلة الحق والواجب والتحرر الوطنى والوحدة الوطنية والتمثيل النيابى وحقوق المرأة .. وكلها مبادئ شكلت الوعى العام وأرست قواعد التعددية والديمقراطية فى الثقافة المصرية.

وتواصلت حركة التنوير فى الثقافة المصرية من جيل الرواد إلى الجيل اللاحق طه حسين وعباس العقاد وقاسم أمين ـ لتثرى المشهد الثقافى المصرى وتصبح الأسس والدعامات ال[illegible] قامت عليها حركة النهضة الثقافية المصرية فى مواجهة الإ[illegible] والحركات الرجعية .. ومازالت قوافل التنوير سائرة إلى هدفها [illegible] أجل إنسان مصرى يحلم بمستقبل أفضل وعالم أروع وأجمل..

سوزان مبارك

تراث التنوير

الثمن : خمسون قرشاً

مطابع الهيئة المصرية للكتاب